حكاية
عبد الله النديم

د. عبد المنعم الجميعي

حكاية
عبد الله النديم

عبد المنعم إبراهيم الجميعى

وزارة الثقافة

سلسلة
حكاية مصر

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد
أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن
مدير إدارة النشر
على عفيفى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• حكاية.. عبد الله النديم
• عبد المنعم إبراهيم الجميعى
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2010م
192ص. 13,5 x 19,5 سم
• تصميم الغلاف:
د. خالد سرور
• المراجعة اللغوية: حسن النجار
أشرف عبد الفتاح
• رقم الإيداع: ٢٤٩٦٢/ ٢٠١٠
• الترقيم الدولى: 978-977-704-423-3
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

سلسلة شهرية للشباب تعنى بنشر تاريخ مصر

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

حكاية.. عبد الله النديم

مقدمة

قصة عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية والرجل الثانى بعد أحمد عرابى تمثل طبيعة الإنسان المصرى بكل سماته وصفاته، حيث انبعث النديم من غمار عامة الشعب، وعانى وذاق ما يتعرض له من فقر وحرمان فالتأم شقاؤه بشقاء أمته، فكانت كلماته وقفشاته تعبيرا حيا عما يدور بخلد الشعب.

لقد كان النديم ميالا - بفطرته التى نشأ عليها قبل أن تولد الثورة العرابية - إلى المناوشة سواء فى عالم الفكاهة والعبث أو فى عالم الجد والعمل. ومن معاركه الفكاهية التى تذكر فى تاريخه معركته الطريفة مع أحد الأدباتية من رواد مولد السيد البدوى والتى نشرت فى العدد الحادى والأربعين من مجلة

الأستاذ حيث كان يجلس النديم على مقهى مع بعض أصدقائه يستمع إلى أحد الأدباتيه، وفجأة بادر الأدباتى النديم بقوله:

أنعم بقرشك يا جندى وإلا اكسنا، أمال، يا افندى
إلا أنا وحياتك عندى بقالى شهرين طوال جيعان

فرد عليه النديم على سبيل المزاح معه:

أما الفلوس أنا مديشى وأنت تقول لى ممشيشى
يطلع على حشيشى أقوم أملص لك لودان

كما أخذ النديم يبادل الأدباتى الكلام نحو ساعة حتى غلبه عندما فرغ محفوظه. ولما علم بذلك شاهين باشا كنج مدير الغربية وقتذاك استدعى شيخ الأدباتية، وطلب منه أن يستحضر أمهر الأدباتية لمنازلة النديم، فحضر بعض الأدباتية واحتدمت المعركة بينهم وبين النديم حوالى ثلاث ساعات انهزم بعدها الأدباتية وفاز النديم عليهم جميعا. هذا عن النديم الأدباتى، أما عنه بعد انضمامه إلى العرابيين فكان شخصية مختلفة تكمن فيها النار الملتهبة وراء صفحة من القداسة والخشوع، فكان يحرض على الإصلاح كما كان يحرض على الثورة، ومن أسلحته فى ذلك العلم واللسان، فعمل على رفع مستوى مواطنيه الاجتماعى وبعث وعيهم الوطنى، وكان أعلم الناس بمحاسن المجتمع المصرى وعيوبه، كما كانت آراؤه فى روحها وجوهرها

تعبيرا عما يجيش فى صدور أبناء وطنه من أحاسيس الأمل والألم ، فكان أول كاتب مصرى يعالج المشكلة القومية بأسلوب شعبى ، وكان حركة لا تهدأ رجلا من رجال العمل ورجال القلم والقرطاس ، ذكى القلب ، شديد العارضة ، ذرب اللسان سريع الخاطر ، حلو الشمائل ، جريئا ، سريع الغضب ، صعب الرضا ، عاش يتأمل أفراح وطنه ويعانى من أحزانه . كما كانت طبيعته الثورية ولهجته الخطابية فى حاجة إلى من يلطف من حدتها .

إن أبرز ما فى النديم هو ذلك النشاط الروحى الزاخر وتلك العزيمة التى لا تكل عن العمل يوما فكان بوقا عظيما للشعب دائم التفكير فى إصلاح أحواله ، عمل من أجله أكثر مما عمل لنفسه ، كان بوقا عظيما للثورة العرابية أفنى نفسه وحسه فيها ، ووهب حياته لها ، حارب الطغيان فى الداخل ، وناهض المستعمر الذى وفد من الخارج ، حتى بالغ البعض فى وصفه بأنه كان نادرة عصره وأعجوبة زمانه ، واستمر النديم يجاهد ويناضل حتى آخر نسمة من حياته ، فاحتمل الشدائد والمتاعب ، ونفاه الاحتلال وأبعده عن وطنه ، ومع ذلك استمر فى نضاله حتى وافاه الأجل فى أكتوبر ١٨٩٦ عن عمر يناهز الرابعة والخمسين ودفن بالآستانة بعيدا عن وطنه الذى قاسى الكثير فى سبيله ، وكان العزاء لروحه يوم أن مات أنها سلمت راية الكفاح إلى

الجيل الجديد وعلى رأسه مصطفى كامل ليواصل الجهاد ويقود الحركة التالية من مراحل كفاح الحركة الوطنية فى سبيل الاستقلال والحرية.

عبد المنعم الجميعى

(١)
نشأة النديم ومصادر ثقافته

ولد عبد الله النديم بالإسكندرية فى عام ١٨٤٣ ونشأ فى أسرة كادحة حيث لعب الفقر دوره فى حياته الأولى، وتآزرت العوامل التى جعلته يشعر بآلام شعبه، فقد كان والده خبازا يصنع الخبز ويبيعه ويحصل من ذلك على مقدار الحاجة من العيش البسيط هو وأسرته. وتربى النديم فى مسكن متواضع فى حارة ضيقة من حوارى حى الجمرك القريب من ميناء الإسكندرية، وأرسله والده إلى كتاب الحى لتعلم مبادئ القراءة والكتابة، فظهر نبوغه حيث أعانته موهبته على سرعة الفهم والحفظ "فحفظ القرآن الكريم وأتمه قبل أن يبلغ التاسعة" ولما كانت أحوال والده المادية ضعيفة أحجم عن إرساله إلى الأزهر،

واستبدل بذلك إرساله إلى جامع قريب من منزله وهو الجامع الأنور فى عام ١٨٥٥ حيث درس "الفقه والأصول والتوحيد والمنطق والنحو والصرف وغيره"، وحضر دروس أكابر الشيوخ هناك ولكنه لم يصبر طويلا على الدراسة فى هذا الجامع حيث أحس بجفافها، وعقم الطريقة التى تدرس بها فضلا عن رداءة الكتب، كما وجد فى نفسه ميلا واستعدادا لشىء لا يستطيع منه خلاصا ولا عنه انصرافا، وهو الأدب فخرج من الجامع إلى الشارع أو إلى الحياة الواقعية فكانت بمثابة الجامعة التى تعلم منها كثيرا وشاهد فيها كثيرا، واغترف منها ما يشبع مزاجه وهوايته فى الأدب فأحاط بالحياة الشعبية، وسمع الأمثال والحكايات من شعراء الربابة ونوادر الظرفاء، كما ارتاد النديم المقاهى والمنتديات والمجالس الأدبية التى كانت تعقد فى بيوت الأثرياء، وفى جلسات التجار المحبين للأدب، يتطارحون الشعر، وغير ذلك من فنون الأدب، واستطاع النديم أن يتفوق على أقرانه وعلى أساتذته، واشتهر أمره، حيث برزت قدراته الخطابية والكتابية، وذاع صيته بالإسكندرية منشدا للشعر، ومدبجا للرسائل، وخطيبا فى المجالس، ولما علم والده بذلك وبإهمال ابنه للدراسة وانقطاعه عنها خيره بين الانتظام فى طلب العلم أو تخليه عنه، مع رفض الإنفاق عليه فاختار النديم الأمر الثانى مما اضطره إلى

البحث عما يسد به رمقه فترك الإسكندرية هائما فى قرى مصر ومدنها ، تارة يجوبها سيرا على الأقدام ، وأخرى يركب القطار .

تعلم النديم صناعة التلغراف ، ولم يكن قد بلغ السابعة عشرة من عمره كى يكتسب رزقه ، فالتحق بمركز التلغراف ببنها ، ولما ظهرت كفاءته نقل إلى مكتب القصر العالىِ الذى كانت تقيم فيه الأميرة " خوشيار خانم" والدة الخديو إسماعيل فعرف النديم حياة القصور ، واستطاع أن يقف على أسرار الخاصة وما بها من بذخ ، وقارن بين ما شاهده من هذه الحياة ، وحياة عامة الشعب وما بها من بؤس وشقاء وفقر مما كان له أكبر الأثر فيما بعد على كتاباته .

استقر النديم فى تلك الفترة بالقاهرة حيث تردد على المجالس التى كان يجتمع بها رجال الفكر وعشاق الأدب ، وجالسهم وأخذ عنهم وشاركهم فيما هم فيه يتنافسون من صفوف الأدب ، واستطاع أن يثقف نفسه ثقافة حرة غير مقيدة بمنهج دراسى أو غيره ، إلا أن هذه الدراسة لم توضح له الرؤية السياسية التى يجب أن يسير عليها ، ولم يتيسر له ذلك إلا بعد اتصاله بجمال الدين الأفغانى .

(٢)
أثر الأفغانى فى التكوين الثورى للنديم

لما سمع النديم بجمال الدين الأفغانى حضر مجلسه فاستهوته أفكاره الجريئة ، لذلك تردد على حلقته ، وانخرط فى سلك تلامذته ، ولما لاحظ الأفغانى نبوغ النديم ، وقوة حجته فى المناظرة والجدل أخذ يدربه ، وأعطاه من وقته واهتمامه الكثير لثقته فى أنه سيكون الخطيب المؤثر فى عواطف الجماهير .

لقد تلاءمت أفكار الأفغانى الدينية والسياسية مع تكوين النديم ، كما أنها أوضحت له الرؤية السياسية والوطنية لذلك كان يهرع إلى مجلس أستاذه ، كلما فرغ من عمله بالقصر العالى ، واستمر على ذلك حتى فصل من عمله ، فانتقل إلى ميادين الحياة الفسيحة باحثا عن وسيلة لكسب عيشه ، فجاب القرى

والمدن وفى أثناء تواجده بمدينة المنصورة تعرف على الشيخ «أبو سعدة» عمدة بدواى فدعاه إلى الإقامة فى قريته كى يعلم أولاده القراءة والكتابة والدين ، وقد استطاع النديم خلال تواجده بهذه القرية معرفة أحوال الفلاحين والظلم الواقع عليهم ، ثم ما لبث أن اختلف مع مضيفه وتشاحنا فترك القرية واتصل بأحد محبى الأدب من أعيان التجار بالمنصورة الذى افتتح له حانوتا لبيع الخردوات ، ولكن نفس النديم الثائرة لم تجد استعدادا للعمل بالتجارة فأهملها ، وأخذ يرحل من بلد إلى آخر حتى تعرف على شاهين باشا كنج مفتش الوجه البحرى وقتذاك فقربه إليه ، وفى صحبته تعرف النديم على أحد رجال الحاشية الخديوية ، فعينه وكيلا لدائرته مما أتاح له فرصة التردد على القاهرة ليقابل موكله هناك ، وخلال ذلك زار مجالس أستاذه فوجد أن لهجته فى الحديث قد تغيرت ، فبعد أن كان يتحدث عن الإصلاح الدينى واتخاذه طريقا للإصلاح السياسى والاجتماعى أصبح يتحدث عن ضرورة التخلص من الظلم الاجتماعى والحكم الفردى والتدخل الأجنبى والاستبداد الواقع على أعناق المصريين ، كما وجد النديم أن أحاديث أستاذه لم تعد تقتصر على الخاصة بل اقترب من العامة الذين ارتادوا مجالسه يتفهمون منه سوء أحوال أمتهم ، والظلم الواقع على كواهلهم وضرورة التخلص منه .

وكان الأفغانى يخاطب المصريين فى لهجة فيها الكثير من المرارة التى تنطلق من محبته لمصر وحرصه على شعبها فهاجت خواطرهم وشغفت قلوبهم بالحرية وبدأت تنتشر روح التململ من الحكومة، فساعد ذلك على أن يكثر حديث الناس عن الأزمة المالية وصندوق الدين والتدخل الأوربى، والظلم والعدل، والاستقلال والحرية والجهل والعوز مظهرين الخوف على البلاد.

لقد رأى الأفغانى أن الحرية والاستقلال لا يوهبان عن طيب خاطر بل إن الأمم تحصل عليهما قوة واقتدارا، وقد مست هذه الكلمات كما مس غيرها قلب النديم ووجد فى نفسه كما وجد زملاؤه فى أنفسهم بعد تتلمذهم على أستاذهم أن الواحد منهم جدير بإصلاح مديرية أو مملكة، وأنهم رغم قلة عددهم إذا وزعوا على مديريات القطر ومحافظاته فسوف يصلحونها فى أقرب وقت، ومن هنا بدأت حياة النديم السياسية.

(٣)
النديم والعمل السياسى قبيل قيام الثورة العرابية

نظرا للبطش والاستبداد وأساليب القهر التى اتبعت فى مصر خلال حكم الخديو إسماعيل خشى رجال الحركة الوطنية من بطش الخديو بهم خصوصا أن حركتهم كانت ما تزال وليدة ومن السهل القضاء عليها ، لذلك نجد أن جمال الدين الأفغانى لجأ فى عام ١٨٧٨ إلى المحافل الماسونية ذات النشاط السرى والمتمتعة بالرعاية الأجنبية ويحث تلاميذه على الانضمام إليها ، ولكنه سرعان ما خاب ظنه فيها بعد أن وجد أنها مرتبطة بدول استعمارية ، وخلال ذلك علم النديم بوجود جمعية سرية بالإسكندرية تهدف إلى قلب نظام حكم الخديو إسماعيل وهى (جمعية مصر الفتاة) فانضم إليها لفترة ، ولما أحس أن العمل

السرى لا يتفق مع طبيعته الشعبية تركها ، واستطاع أن يؤسس بمساندة بعض أصدقائه جمعية علنية تحت اسم (الجمعية الخيرية الإسلامية) حيث زاول فيها نشاطه السياسى العلنى بجانب نشاط الجمعية الاجتماعى والثقافى .

وبينما كان النديم ينبه الأذهان إذا بالأخبار تعلن عن إجبار الخديو إسماعيل على التنازل عن العرش وتولية ابنه توفيق مكانه ، فاستقبلت البلاد هذا النبأ بالابتهاج وشمل الناس السرور لحدوث مثل هذا الأمر الخطير دون وقوع اختلال أو حدوث ما يكدر صفو الأمن ، ولما كان الخديو توفيق قبيل اعتلائه أريكة الخديوية يتودد إلى الأفغانى ويتقرب من أنصاره ، مؤكدا له - كلما قابله - اعتماده عليه فى تحقيق الإصلاح المنشود بقوله : "إنك أنت موضع أملى فى مصر أيها السيد" مما دفع الأفغانى إلى المناداة بتوليته ولكن ما إن استقرت له الأمور حتى نسى وعوده وغدر بأصدقائه وضاق ذرعا بالأفغانى ، حين طلب منه أن يكون حاكم عدل فتخلص منه ، كما سجن ونفى كل من اعترضه أو حاول نقده . ومع أن معظم الوطنيين قد تركوا ميدان الكفاح العلنى وتفرقوا خوفا من بطش الخديو الجديد فقد ظلوا أوفياء مخلصين لأستاذهم معترفين بفضله وغزير علمه ، كما أن روح الثورة التى أيقظها الأفغانى لم تنطفئ بنفيه من البلاد بل امتد أثرها ، وكانت الثورة العرابية إحدى ثمراتها .

(٤)
ظروف انضمام النديم إلى العسكريين

بينما كان النديم يقوم بدوره فى تعبئة الشعور الوطنى كان رسل الحركة الوطنية من رجال الجيش يجوبون القرى والمدن تمهيدا لنشر دعوتهم وجذب شعور الأهالى تجاههم، فتقابلوا معه ودارت بينهم وبينه مشاورات سرية من أجل أن ينضم إليهم، وقد انضم النديم إلى العرابيين سرا بعد أن غزا التدخل الأجنبى كل مصالح الدولة ولم ينج من ذلك سوى الجيش الذى كانت غالبيته من المصريين وأصبح يلعب دورا فى الحركة الوطنية.

عرف النديم ما يدور بخلد العرابيين، وسمع منهم رجالا ينادون بالإصلاح ويعملون من أجل حرية الوطن فوقف

بجانبهم . وحينما علم رياض باشا رئيس النظار بخبر اتصال النديم بالعرابيين ودعوته لهم كتب قرارا بنفيه إلى خارج الديار المصرية ، ولكن محمود سامى البارودى مندوب العسكريين السرى فى مجلس النظار كان يتخذ من الإجراءات الخفية ما فيه مصلحة الحزب العسكرى المتحد معه ، وينبئهم بكل ما يحاك ضدهم فى المجلس فأبلغهم بالأمر ، ولما عرض رياض باشا قرار نفى النديم على الخديو للتصديق عليه اعترضه على فهمى قائد حرس الخديو بقوله : "إن نديما منا معشر الجهادية وإن لم يحمل سلاح العسكرية ، ولئن أخذتموه بغتة من البلاد حافظنا عليه بالأرواح والأجناد" ، فألغى الخديو القرار وفشل رياض فى نفيه ، مما شجع العسكريين على التمسك بالنديم فأسرع على فهمى إلى ميت غمر حيث كان ينشر النديم أفكاره فأعلنه بالأمر ، وعن ذلك يذكر النديم : «أعلننى على باشا بهذا الأمر وأنا أخطب فى ميت غمر فتظاهرت بحب العسكر والتعويل عليهم وناديت بانضمام الجموع إليهم» .

طلب على فهمى من النديم الدعوة إلى الجيش علانية فاستجاب لذلك وأصبح من أخطر دعاة العسكريين حيث وضع خبرته الكبيرة فى العمل الجماهيرى لخدمتهم وانتقل من الاشتغال بالتربية والإصلاح الاجتماعى إلى دور الصحفى

والخطيب السياسى الناطق بلسان الثوار .

قابل النديم "عرابى" فأحله منزلة قريبة من نفسه واتخذه مستشارا له للاستفادة بآرائه وخبراته فبذل النديم كل جهوده لمساندة الثورة وربط نفسه برباط وثيق مع العرابيين ، فانتعشت حركة الضباط وقوى عضدها بانضمامه إليها حيث كان قلمه الصحفى المؤثر ولسانه الفصيح المقلق أكبر عضد لهم فملأ صحيفته بمحامدهم ودعا إلى القيام بنصرهم ، وخطب الخطب المهيجة ، ونظم القصائد الحماسية ، وندب الوطن ورثاه وحض على الاجتماع والتكاتف ونبذ أضاليل الإفرنج فى أسلوب قوى ولسان فصيح مقلق فأثرت خطبه ومقالاته فى النفوس وكان لذلك أكبر الأثر فى جذب الأهالى إلى حركة العسكريين .

(٥)
حادث قصر النيل ودور النديم فى تحويله إلى حركة شعبية

لما كانت الفروق الطبقية والميل إلى التعصب الجنسى واضحيْن فى صفوف الجيش ، فالوظائف المهمة والرتب والنياشين والمكافآت كانت تعطى للشراكسة والأتراك وغيرهم ، بينما كان المصريون محرومين من هذه المزايا بل وعاملهم عثمان رفقى ناظر الجهادية بالذل والاحتقار ، وسعى فيما يوجب لهم الحرمان والإضرار فحرم أغلبهم من خدمة الوطن رغم استعدادهم وأهليتهم ، مما أورثهم عدم الأمن والطمأنينة على أنفسهم ومستقبلهم ، كما كلف المصريين بأعمال بعيدة عن مهنة الجندية وسن قانونا للقرعة العسكرية يمنع بمقتضاه الوطنيين من الترقى إلى رتبة الضباط ، مما دفع الضباط الوطنيين إلى التذمر فكتبوا

عريضة إلى رياض باشا رئيس النظار فى يناير ١٨٨١ للمطالبة بوقف الظلم والمحسوبية وأن يكون ناظر الجهادية مصريا ، ولما أحسوا بإهمال مطالبهم واعتبارها من قبيل العصيان ، وقعت حادثة ٤ فبراير ونجح الضباط الوطنيون فى فرض إرادتهم فعزل عثمان رفقى وتولى محمود سامى البارودى مكانه فازداد اتحاده مع العرابيين وأعلن قوانين جديدة وعادلة للجيش تعد بالمساواة للجميع .

لقد بارك الشعب حركة الضباط وأيدها حيث وجد فيها تنفيسا عن آلامه فى التخلص من ربقة الأجنبى واستبداده ، وأصبح عرابى وزملاؤه فى نظرهم محل تقدير واعتزاز ، فوفدوا عليه يبثون إليه شكواهم ، كما هطلت عليه عرائض الفلاحين من أنحاء البلاد حيث وجدوا فيه قائدا يستطيع أن يرفع عنهم الضرائب والمظالم التى أثقلت كواهلهم ففتح عرابى قلبه للجميع بقدر ما يستطيع ، وأصبح زعيما ترنو إليه الأنظار حيث التقت أهدافه بأهداف أبناء وطنه .

ومع أن حادث ٤ فبراير وقع من أجل هدف محدد هو معاملة أبناء الفلاحين فى الجيش من حيث قصر الترقيات على غيرهم وشعورهم بالظلم إزاء رؤسائهم من الجراكسة فقد تحول إلى حركة شعبية ، وكان النديم وراء ذلك إذ استغل مباركة الشعب

لموقف الضباط فأشار على عرابى بطبع منشور يطلب فيه من الشعب أن يفوضه فى المطالبة بحقوقه ، والتحدث باسمه فيما يتعلق بشئون البلاد وقد وافق عرابى على صيغة المنشور وكلف النديم بتوزيعه على الأهالى.

وقد وزع النديم المنشور ، كما أخذ يبث الأفكار الثورية بين مشايخ العربان وعمد البلاد وأعيانها وعلمائها وتجارها وكافة الأهالى استجلابا لمساعدتهم ثم أخذ فى جمع التوقيعات منهم ، ودعاهم إلى نصرة عرابى وأخذ يعلمهم فوائد الحرية ومعانى الدستور وقيمته فى أسلوب سهل يفهمه الناس ولسان فصيح مفلق ، كما كان يصعد إلى منابر المساجد ويخطب فى الناس علانية ويعلن على رءوس الأشهاد فى البلاد التى يطوف بها انضمامه إلى منظمة الجيش وينادى فى الناس بالاجتماع حولها حتى يتخلصوا من حياة الذل والعبودية والاستبداد.

عاد النديم إلى القاهرة ومعه العرائض الكثيرة الموقع عليها من الأهالى بتوكيل عرابى فى الدفاع عن حقوقهم وتخليصهم من ربقة الاستغلال الذى أثقلهم ففرح بها عرابى ، وكان لها أكبر الأثر فى تقوية العزائم مما دفع البعض إلى أن يطلقوا على هذه العرائض "المحضر الوطنى" ، كما جاءت فى أثر النديم الوفود لمبايعة عرابى على تخليصهم من الظلم الذى ضيق عليهم

حياتهم وأفسدها ، وفوضوا إليه العمل لما فيه سعادة البلاد وخلاصها من براثن الاستبداد ، حيث اعتبروه القائد المرتقب الذى سينجى البلاد من المظالم الداخلية والأخطار الخارجية فاستقبلهم عرابى فى منزله الذى كان يمتلئ بالناس كل يوم وفى مقدمتهم أنصار الحركة الوطنية ، وقد استغل النديم ذلك فى إبراز قدراته الخطابية ، وهكذا تحولت الحركة العرابية من حركة عسكرية إلى ثورة شعبية .

(٦)
مظاهرة عابدين ودور النديم فيها

لما عظم شأن العرابيين وخشى الخديو من خطرهم حاول تشتيت شملهم بإبعادهم عن القاهرة فصدرت الأوامر بنقل الفرقة الثالثة المشاة التى يقودها عرابى والآلالاى السودانى الذى يقوده عبد العال حلمى بالسفر حالا من القاهرة، الأولى إلى الإسكندرية والثانى إلى دمياط، فتوقف عرابى عن إطاعة الأمر، واضطربت الأحوال، نتيجة لشدة الضغط من الحكومة وكثرة الدسائس، ولما اطمأن عرابى إلى استيقاظ مشاعر الأهالى وإنابته عنهم زحف فى مظاهرة إلى ميدان عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ متحدثا بلسان الأهالى الذين أنابوه استنادا إلى التوقيعات التى جمعها له عبد الله النديم فوقف فى ساحة عابدين أمام

الخديو ممثلا للأمة المصرية كلها ينطق باسمها ويعبر عن إرادتها عن طريق الجيش الذى اجتمع ليعطى بالسلاح الحرية للشعب المصرى فطالب بسقوط "الوزارة جالبة الغمة وفتح مجلس شورى للأمة، ووضع حدود للحاكم والرعية وسن قانون لمعاش الجهادية، "ولما سأله الخديو بأن هذا ليس من اختصاص رجال العسكرية أجابه عرابى : "لست أطلبه وأنا عسكرى الصفة بل أنا نائب هذه الأمة الواقفة" .

لقد كان دور النديم فى أثناء هذه المظاهرة خطيرا حيث وكل إليه عرابى حماية المؤخرة من أن يصيبها الضعف أو يتسرب إليها الخذلان، وقد أشار عرابى إلى ذلك صراحة فى مذكراته فقال : " تحركت فينا الحمية العربية، والغيرة الوطنية فتعاهدنا على حفظ البلاد . . وسرت بهذا الجيش، ووقفت بساحة عابدين، وقد اشتدت شوكة جيش البغى وقويت معارضته، هناك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا فجال صديقى الأعز الهمام صاحب الغيرة والعزم القوى السيد عبدالله النديم بين الصفوف ينادى : ﷺوإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ﷻ فكان معى ثانى اثنين فى حفظ قلوب الرجال من الزيغ والارتجاف وأخذ الكل يردد هذه الآية الكريمة، وكأنهم لم

يسمعوها إلا من فمه فى تلك الساعة، وقد نجح الجيش فى المطالبة بحقوق الأمة حيث قبل الخديو مطالب العرابيين فعزل وزارة رياض، وتم تعيين شريف باشا وإعلان الحياة الدستورية.

لقد شعر النديم بعد استجابة الخديو لمطالب العرابيين بانتصار الثورة فتدفق قلمه بالكتابة عن الحرية التى نالها الشعب بفضل أبنائه الفرسان وعن قوة الجند واشتداد حميتهم وسعيهم لمصلحة الوطن وحفظ البلاد وزيادة قوة الأمة، وكتب عن الاتحاد وحقوق الشعب على الحكام فقال: "أوصيكم بكلمة الاتحاد والتمسك بحبل الائتلاف، وأحذركم من التخاذل وسماع أقوال أهل الأهواء الذين شربوا دماءنا ولم يرتووا وأكلوا لحومنا ولم يشبعوا».

ولما كانت الثورة فى حاجة إلى ركائز شعبية للاستناد عليها فى مرحلة من مراحل نضالها الوطنى والمخاطر الذى تعترضها فقد شجع النديم على تأسيس جمعية ذات صبغة سياسية بالإسكندرية لتوعية الشبان وتعبئتهم وطنيا وهى جمعية الشبان بالإسكندرية.

(٧)
النديم وجمعية الشبان بالإسكندرية

لما كان للنديم تأثير كبير على نفوس الأهالى بالإسكندرية فقد شجع على تأسيس جمعية ذات صبغة سياسية لتوعية الشبان وتعبئتهم وطنيا حتى يكونوا سندا للثورة وركيزة لها فتأسست جمعية الشبان بالإسكندرية وانتظم فى سلكها كثير من الشبان من أبناء الإسكندرية وكانوا يعملون محافل عمومية يدعون إليها الخاص والعام، ويحضر بها عبد الله النديم ويلقى عليهم الخطب المهيجة، وقد بلغ من أهمية هذه الجمعية أن كان محافظ الإسكندرية عمر باشا لطفى يحضر اجتماعاتها وكان من ضمن مشروعاتها إنشاء بنك وطنى فرارا من استئثار الأجانب بمرافق البلاد.

وكان من أهم أعمال هذه الجمعية مساندة الثورة وتأييدها فيما يحدث من مواقف. وقد استمر نشاط هذه الجمعية فى حماية رجال الثورة العرابية وخصوصا "السيد قنديل" مأمور ضبطية الإسكندرية، ولم يتوقف نشاطها إلا بعد هزيمة الثورة حيث قبض على رئيسها وأعضائها ووضعوا فى السجون بتهمة إثارة الناس وبلبلة أفكارهم وتختيم المحاضر والتداخل مع العصاة.

(٨)
مواقف النديم تجاه العرابيين بعد عابدين

استقرت الأمور فى الحقبة الأولى من نظارة شريف الدستورية التى أكدت أن تشكيل مجلس النواب هو الوسيلة الوحيدة للإصلاح ، وابتعد رجال الجيش عن مسرح السياسة قليلا ، وعادوا إلى ثكناتهم كطلب شريف باشا وتصميمه على ذلك ، كما استجابوا لطلبه بالابتعاد عن العاصمة فخرج عبدالعال حلمى بالآلاى السودانى إلى دمياط فى موكب شعبى كبير ، وفى وسط هذا الجو المشبع بالوطنية وقف النديم يلقى خطابا إلى حماة البلاد وفرسانها حيّا فيه رجال الجيش وأشاد بشجاعتهم وهنأ الحزب الوطنى على فوزه ودعا الأمة كلها إلى الاتحاد والتعاهد على حفظ الوطن واختتم خطابه بقوله : "وأحسن ما يؤرخ به

اسم الجهادى عند النوازل أن يقال(مات شهيد الأوطان) فنادى الجميع : رضينا بالموت فى حفظ الأوطان" . ثم سافر النديم مع الآلاى إلى دمياط وهناك ألقى خطابا حماسيا فى المحتشدين مدح فيه رجال الجيش الذين أنقذوا البلاد من جو الاستبداد كما لقب عرابى "بمحرر البلاد" .

ولما تأهب عرابى للسفر بآلايه إلى رأس الوادى فى ١٨ أكتوبر ١٨٨١ خرجت البلاد لتودع بطلها وازدحمت شوارع القاهرة بالمشاهدين تستقبله بحماسة وكان النديم بجانبه ، وبعد أن خطب عرابى فى المحتشدين قام النديم بناء على طلب الحاضرين وألقى خطبة قوية وضح فيها أحوال البلاد قبل انتفاضة الجيش مبينا الإرهاب والظلم واستعلاء الغرباء على أهل البلاد حتى نهض الأحرار من أبنائها فخلصوها من المحنة وأشار إلى الأطماع الخارجية المتربصة بالوطن وضرورة التمسك بالحكمة والصبر واجتماع الكلمة لمواجهتها ، كما تحدث عن الحرية فقال : " وليست الحرية تتبع الشهوات البهيمية والأغراض الذاتية ، وإنما هى معرفة الحقوق والواجبات" ، وقد بالغ النديم فى أثناء خطبه "فى التنكيت والتبكيت حتى أخذ بالعقول وكاد يبكى الناس" .

رافق النديم قائد الثورة فى سفره إلى رأس الوادى ، وكان يخطب فى الأهالى الذين يجتمعون عند كل محطة ، وعندما

وصل القطار إلى الزقازيق ازدحمت الجماهير الكثيرة، وأقيم احتفال تكريما لعرابى حضره نحو ألف شخص خطب فيهم عرابى، وحينئذ طالب الناس النديم بأن يخطب فيهم فاستجاب لهم، وما إن فرغ من خطبته حتى استزادوه فعاد وخطب مناديا بالوحدة والتمسك بالحرية.

ولم يكد شريف باشا يسمع بتردد الفلاحين والعربان على عرابى وبأن الشرقية أصبحت مجالا لخطب النديم حتى استدعى عرابى إلى القاهرة بحجة أن يكون قريبا منه فيتيسر له "إعطاؤه النصائح فى كل وقت" ثم وافق بعد ذلك على تعيينه وكيلا للجهادية نتيجة لإصرار البارودى واستحسان باقى النظار لرأيه، ولما أحس شريف باشا بخطورة النديم أراد الترصد له ولصحيفته، ولكنه لم يفلح فى ذلك، وبعد أن اتضح للجميع أن النديم هو داعية الجيش الأول وجهاز إعلامه المتنقل طلب منه عرابى تغيير اسم جريدته بما يلائم الظروف التى يمر بها الوطن فأصدر النديم "الطائف".

وسارت الأمور بطريقة طبيعية وكادت تتمكن الحياة الدستورية من السير فى طريقها السليم لولا أن ذلك لم يوافق هوى كل من إنجلترا وفرنسا فافتعلتا سلسلة من الأزمات لعرقلة الأمور وبدأ تدخلهما يظهر بصورة سافرة، ولما حاول شريف

باشا مهادنة النفوذ الأجنبى بالحد من سلطة النواب من الاطلاع على الميزانية ثارت ثائرة معظم أعضاء المجلس مما دفع شريف إلى الاستقالة وانتقال مقاليد الأمور إلى الحزب العسكرى وأنصاره فتألفت نظارة محمود سامى البارودى وعين فيها عرابى ناظرا للجهادية ، وبذلك نجح العرابيون فى السيطرة على الموقف ، وتحقيق آمال الأمة ، وإضعاف مركز الخديو ، وقد استهلت نظارة البارودى عهدها بأن جعلت من حق المجلس النظر فى الميزانية والإشراف على أحوال البلاد المالية مع تعهدها باحترام الارتباطات الدولية والالتزامات المرتبطة بالديون كما كونت مجلسا لرفع الاستبداد الإدارى عن الشعب والمساعدة فى تجهيز القوانين واللوائح الإدارية سمته مجلس شورى الحكومة ، وإزاء هذه المواقف برز دور عبد الله النديم فى الدفاع عن حكومة الثورة وفى إشعال القلوب بجذوة الحماسة ونور الوطنية والدفاع عن مجلس النواب وحقه فى الإشراف على الميزانية كما هاجم مساوئ الأوربيين فى جعل الشرق ضعيفا ، وندد بالتدخل الأجنبى والصحف الأجنبية التى اعتبرت الدفاع عن الحقوق عدوانا على الأجانب ، والتى صورت الأزمة بتعصب دينى من المصريين ، كما شارك النديم بخطبه البلاد فى بهجتها بانتصار مجلس النواب حيث قدم على العاصمة المهنئون من قاصى البلاد

ودانيها على اختلاف المذاهب للتهنئة ، ونجح فى تعبئة الرأى العام وتنمية الوعى القومى لدى الشعب ، وإثارة مشاعر أبنائه وإبراز ما يحيط بهم من ظلم داخلى وخطر خارجى بدرجة مؤثرة كما أصبحت جريدة «الطائف» أولى الصحف الوطنية حتى أن معظم الصحف اعتبرتها الجريدة الرسمية . وإزاء هذا الابتهاج الوطنى أحس الكثير من الأوربيين المقيمين فى مصر بالفزع والخوف على أنفسهم فأخذ بعضهم فى الهجرة .

سارت الحركة الوطنية تحدوها الرغبة فى التقدم ، ولما كان النديم يمثل الجانب المتطرف فى فكر قادة الثورة فقد اقترح أن ترسل كل المكاتبات الرسمية إلى الحكومة لا إلى الخديو ، وألا يكون من حق الخديو الموافقة على شىء دون موافقة الحكومة ، ولما عرض الأمر على الخديو رفض قبوله ، وتجنبا للصدام معه اضطر الوزراء إلى التخفيف من لهجة هذا الإجراء تحاشيا لأى متاعب مما أثار شعور النديم فتمرد ضدهم وطالب بخلع الخديو .

وفى غمرة هذا الابتهاج الوطنى تآمر بعض الجراكسة على اغتيال الزعماء الوطنيين وقتل كل وطنى له منصب كبير ولما كشفت المؤامرة أقيمت الاحتفالات والولائم بالإسكندرية تهنئ بسلامة رجال الثورة وتندد بالمتآمرين ، وقد ألقى عبد الله النديم فى هذه الاحتفالات خطبا تناولت ذم الشراكسة والتنبيه على

سلامة عرابى، وبعد أن حوكم المتآمرون رفض الخديو التصديق على الأحكام الصادرة ضدهم، مما أدى إلى حدوث أزمة عنيفة بينه وبين العرابيين، هاجم النديم فيها الخديو هجوما عنيفا ولقبه بالخائن المخدوع، ولما توسط النواب للتوفيق بين الطرفين اشترط الخديو تعطيل "الطائف" لشدة ما وجهته إليه من إهانات، ولما كان الموقف خطيرا والرأى العام فى حاجة إلى تهدئة، والأنباء تتردد بوصول السفن الحربية الإنجليزية والفرنسية إلى مصر أصدرت الوزارة قرارا بتعطيل «الطائف» و«المفيد» فى ١٧ مايو ١٨٨٢ لمدة شهر مما يوضح لنا أن العقل المنظم للثورة لم يكن عقلا ارتجاليا أو معدوم الخبرة تماما بل كان عقلا تكتيكيا مع رفع شعار المحافظة على السلام الداخلى فى الوقت المناسب والتزام النديم به، كما يتضح ثقة رجال الثورة فى تأثير الطائف على الشعب.

سارت الأمور بما قد لا يعطى مجالا لأى تدخل أجنبى، ولكن ما إن وصلت الأساطيل الحربية إلى الإسكندرية حتى تقدمت إنجلترا وفرنسا بمذكرة مشتركة فى ١٨٨٢/ ٥/ ٢٥ يطلبان فيها إسقاط وزارة محمود سامى البارودى وإبعاد عرابى عن مصر، وتحديد إقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى الريف. وقد وافق الخديو على المذكرة بينما رفضتها الأمة كلها، مما دفع البارودى إلى تقديم استقالته فى ١٨٨٢/ ٥/ ٢٦ احتجاجا على

هذا التدخل فوافق الخديو على الاستقالة ، وتولى أمور الجيش بنفسه مما دفع كبار الضباط إلى التذمر ، كما عملت محاضر وقع عليها الناس لخلع الخديو ، وهاجت نفوس الشعب وعقدت الاجتماعات تأييدا للعرابيين وأرسلت جمعية الشبان بالإسكندرية وفدا إلى القاهرة ومعه محاضر موقع عليها بتأييد وزارة البارودى كما ظل عرابى على اتصال بالجيش والوطنيين موضحا لهم أن النظارة وإن كانت قد استعفت لأمر سياسى فإنه لم يستعف من رئاسة الحزب الوطنى .

فى غمرة هذه الأحداث برز دور النديم فتوجه إلى الأزهر ، وخطب فى رجاله فأشعلهم حماسة وزادهم وطنية وإيمانا بالثورة حتى أفتى بعض المشايخ بتكفير الخديو ثم توجه إلى الإسكندرية يخطب فى الناس متهما الخديو بالرغبة فى بيع البلاد للإنجليز ، وبأنه هو الذى طلب إحضار البوارج الحربية الإنجليزية إلى الإسكندرية لاحتلال المدينة وقتل كل مسلم بها وضرب مساجدها فأشعل الروح الوطنية والدينية وأيقظ النفوس فوردت التلغرافات من طبقات الشعب كافة تؤيد العرابيين فى موقفهم الوطنى .

والتحمت طبقات الشعب فخرج العلماء والمشايخ والنواب والأعيان ومجموعة من التجار وأرباب الحرف إلى الخديو

مطالبين بإبقاء عرابى فى نظارة الجهادية حفاظا على الأمن وتسكينا للاضطراب لأنه فى حالة عدم قبول ملتمسهم سيحصل قتل عام، فاضطر الخديو تحت هذا الضغط الشعبى إلى إعادة عرابى إلى نظارة الجهادية والبحرية.

ونتيجة لتطورات الأحداث حاول السلطان العثمانى استغلال الموقف بهدف عودة سلطانه المتدهور فى مصر فأرسل بعثة برئاسة درويش باشا لتقصى الحقائق والتحقيق فى أمر الخلاف بين الخديو والوزارة فوصلت إلى الإسكندرية فى ٧ يونيو ١٨٨٢، فأرسل كل من الخديو وعرابى مندوبين لاستقبالها كما سافر النديم إلى الإسكندرية كى يهيئ الناس لاستقبال البعثة والاحتجاج على المذكرة المشتركة ووجود الأسطولين، فعلّم الرجال والنساء والأطفال نشيدا يردده واحد منهم هاتفا: اللايحة اللايحة، فيرد عليه الباقون: مرفوضة مرفوضة، ارموها، ارموها.

ولما وصل درويش إلى القاهرة استقبله الشعب فى الطريق بهتافات يمدحون فيها عرابى ويخفضون من شأن الخديو، وبعد أن أحس النديم بميول درويش العدائية تجاه الحركة الوطنية عقد اجتماعا بالأزهر هاجم فيه البعثة التركية هجوما عنيفا مما هز مركز البعثة وجعل أغلبية الناس ينادون برحيلها من البلاد ولو بالقوة.

(٩)
النديم بين مذبحة وحريق الإسكندرية

حاول الخديو إحراج مركز العرابيين- خصوصا بعد أن تعهد عرابى بالمحافظة على الأمن والنظام- فسعى إلى إحداث شغب فى القاهرة، ولما تعذر ذلك أرسل برقية إلى "عمر لطفى" محافظ الإسكندرية آنذاك جاء فيها: "ضمن عرابى أمر الأمن العام، ونشر ذلك فى الصحف، وجعل نفسه مسئولا لدى القناصل فإذا نجح فى ضمانه هذا وثقت به الدول، وصغر شأننا، أما الآن وأساطيل الدول فى مياه الإسكندرية وعقول الناس متهيجة فوقوع الخلاف بين الأوربيين وغيرهم أمر محتمل فاختر لنفسك إما خدمة عرابى فى ضمانه أو خدمتنا» وقد استتبع هذه البرقية مفاوضات أخرى جرت بين ابن عم الخديو "الأمير حيلدر باشا"

الذى انتقل عدة مرات بين القاهرة والإسكندرية حاملا رسائل المتآمرين ، كما سافر "عمر لطفى" إلى القاهرة فى ٩ يونيو ليقف بنفسه على خطة المؤامرة ، حيث اتفق على إحداث شغب فى الإسكندرية ليكون وسيلة إلى خدش تعهد عرابى وإلقاء اللوم عليه ، فوقعت مذبحة الإسكندرية وقد ساعد على ذلك القلق والاضطراب اللذين استوليا على سكانها نتيجة لوجود الأساطيل الأجنبية فى مياه الإسكندرية ، ولخطب النديم الثورية المؤثرة وكثرة الشائعات مما دفع الأوربيين المقيمين بها إلى توقع الشر والاستعداد للدفاع عن النفس إذا دعت الحاجة إلى ذلك مما أتاح الفرصة للإنجليز فاتخذوا من هذه الأحداث ذريعة للتدخل المباشر بحجة عجز العرابيين عن حماية أرواح الأجانب فضرب الأسطول الإنجليزى طوابى الإسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢ ويذلت القوات المصرية جهدها فى مواجهة قذائفه واشترك أهالى الإسكندرية فى نقل الذخائر إلى المدافعين ، ولكن ضعف المدفعية المصرية وقدمها لم يحقق استمرار الصمود والمحافظة على الطوابى .

نزلت القوات الإنجليزية إلى الإسكندرية فانحاز الخديو لها وسارع هو وشيعته الضئيلة بتهنئتها ، ولما علم النديم بهذه الأخبار وكان وقتئذ بالقاهرة أسرع إلى الإسكندرية حيث وجد التخريب

والتدمير والفزع منتشرا بين الأهالى ، وفى أثناء تجواله قابل محمود سامى البارودى فأخذا يتدبران الأمر ثم اتجها معا إلى عرابى حيث استقر رأى الجميع على الانسحاب من الإسكندرية إلى منطقة كفر الدوار حيث إن الإسكندرية لم تعد تصلح كمنطقة دفاعية بعد تحطيم حصونها واشتعال الحرائق بها .

(١٠)
دور النديم فى أثناء المعارك بين العرابيين والإنجليز

لما أخذ عرابى فى إعداد خطوطه الدفاعية فى كفر الدوار طلب منه الخديو وقف كل التجهيزات الحربية والحضور إليه فى قصر رأس التين، وإلغاء الإدارة العسكرية وإعادة الإدارة المدنية فاستشار النديم فى الأمر فنصحه بعدم التوجه إلى الخديو برأس التين فرفض عرابى طلب الخديو واستمر فى استعداداته، وأخذ النديم فى تعبئة الشعور الوطنى فنظم أسلوب الدعاية إلى المعركة وضاعف جهده وتحمل المسئولية كاملة فكان قديرا على اللعب بعواطف الناس وإشباع تطلعاتهم.

ونتيجة لتطورات الأحداث واتضاح موقف الخديو المؤيد للإنجليز دعا عرابى إلى عقد جمعية عمومية من طوائف الشعب

كافة لعرض الموقف عليهم فاجتمع "عدد عظيم من سراة المدينة وعظمائها وعلمائها للمشاورة فى أمر الحرب "وانعقدت أولى جلسات الجمعية فى مساء ٨٢/ ٧/ ١٧ واتخذت قراراتها بالإجماع، وكان أهمها الاستمرار فى قتال الإنجليز ومطالبة الخديو ومن معه من الوزراء بالعودة إلى القاهرة. ولما علم الخديو بذلك أصدر أمرا بعزل عرابى من منصبه وإعلان عصيانه، فعقدت الجمعية اجتماعها الثانى فى ١٨٨٢/ ٧/ ٢٢ وبرز دور النديم فى هذا الاجتماع حيث شنع بالخديو وطالب بالوقوف مع رجال الجهادية، وفى هذا الاجتماع استطاع العرابيون تختيم الحاضرين على توقيف أوامر الخديو وما يصدر من نظارة الموجودين معه بالإسكندرية وعدم تنفيذها، حيث إن الخديو خرج على قواعد الشرع والقانون.

وأرسل العرابيون إلى المديريات ودواوين الحكومة منشورا بإعلان انضمام الخديو إلى الإنجليز وخلع طاعته لأنه باع البلاد لألد أعدائها، والاستعداد للقتال وعدم تسليم البلاد لأحد وفيها ذو روح يتنفس.

كما أمر عرابى بسد ترعة المحمودية لقطع المياه عن الخديو وأعوانه بالإسكندرية.

وفى غمرة هذه الاستعدادات للحرب توجه النديم إلى الأزهر

مشعلا حماسته لمناصرة الثورة حتى أفتى بعض المشايخ بتكفير الخديو لانحيازه إلى أعداء الوطن ثم أخذ يجوب مدن البلاد وقراها لحفز همم الناس على مواجهة أعداء الوطن والدين، فكان لخطابته دوى شديد فى النفوس حيث تناقلها الناس فيما بينهم واشتعلت قلوبهم بالحماسة للوطن والدين وتزاحموا على إعانة الجيش بما يلزمه، وكان النديم ينشر أخبار التبرعات فى صحيفته، كما تحمست الأمة المصرية على اختلاف مشاربها لقتال الإنجليز الطامعين فى البلاد فانضم الرجال إلى معسكرات التدريب تاركين عائلاتهم ومحلاتهم وأشغال مزروعاتهم، وهرع الشيوخ إلى المساجد يدعون الله أن ينصر "عرابى" حامى البلاد.

وقد قامت "الطائف" بدورها فى الدعاية للعرابيين تعادى من يعاديهم وتشجع من يواليهم، كما لقبت "عرابى" بحامى البلاد المصرية والمدافع عن الإسلام، وتردد بين الناس هتاف " الله ينصرك يا عرابى".

وقد حاول النديم فى دعايته للحرب تجنب الشقاق بين عنصرى الأمة، فذكر أن الحرب بين المصريين والغزاة وليست بين مسلمين ومسيحيين حتى يقطع على الإنجليز طريق اتخاذ الدين وسيلة للتفرقة بين أبناء الوطن، وساعد على ذلك أن بطريرك الأقباط أعلن

أن الإنجليز خرجوا على تعاليم المسيحية السمحة التى تدعو إلى الإسلام، ومن ثم أصبح الإنجليز فى نظر المصريين كفرة خارجين عن دينهم فوق أنهم غزاة مغتصبون، وبعد أن عبأ النديم الشعور الوطنى داخل البلاد لحق بعرابى فى مقر قيادة الجيش بمعسكر "كنج عثمان" حيث كان الجيش يتأهب لقتال الإنجليز فعمل مستشارا سياسيا له وتحمل عبء الدعاية كاملا.

ولما لم يتمكن الإنجليز من اقتحام استحكامات العرابيين فى كفر الدوار وجهوا قواتهم إلى قنال السويس مما اضطر العرابيين إلى جعل منطقة التل الكبير مركزا عموميا لقواتهم العسكرية.

انتقل النديم مع عرابى إلى الجبهة الشرقية فى التل الكبير يكتب أخبار الحرب فى صحيفته، ويهاجم الخديو والاحتلال، وينشر الدعايات المليئة بالمبالغات ضد الإنجليز مستثيرا همم الجنود ومحمسا لهم.

وقد استطاعت إنجلترا تغيير ميزان المعركة لا حربيا فقط بل وسياسيا أيضا، إذ استطاعت نتيجة للمحادثات المكثفة بينها وبين الدولة العثمانية ونتيجة لجهود اللورد دوفرين مندوبها فى الآستانة-الضغط على السلطان حتى أصدر منشورا بعصيان عرابى مما قلب ميزان الحماسة الشعبية وأضاع التأييد الإسلامى والعربى للثورة، وكان له أسوأ الأثر فى النفوس.

(١١)
كيف واجه النديم الهزيمة؟

فى التل الكبير كانت المعركة الفاصلة التى فوجئ بها المصريون حيث لم يكن متوقعا فى حساباتهم الهجوم الإنجليزى الذى استمر نحو عشرين دقيقة تحطمت خلالها متاريس العرابيين، فسافر عرابى والنديم إلى القاهرة فى ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ وذهبا إلى قصر النيل حيث مقر وزارة الحربية، وكان المجلس العرفى مجتمعا فأنبأهم عرابى بخبر الهزيمة، وبعد أن استعرضوا الأمور استقر الأمر على المقاومة، وترتيب نقط عسكرية أمام العباسية لمنع الإنجليز من دخول المدينة، وخطب النديم يستنهض الهمم للدفاع عن العاصمة ثم توجه عرابى والنديم وبعض الحاضرين من كبار الضباط وغيرهم إلى العباسية

لإجراء ترتيب النقط العسكرية، فوجدوا أن الاستعدادات والذخيرة لا تكفى للمقاومة، وأن شبح الهزيمة كان باديا على الضباط والجنود فعادوا إلى المجلس العرفى، وعرضوا عليه الموقف فتقرر الكف عن القتال والتسليم.

وخلال ذلك سلم عرابى وبعض زملائه أنفسهم للإنجليز، أما النديم فقد أعد عدته للاختفاء.

(١٢)
أحوال البلاد بعد هزيمة العرابيين

دخلت القوات الإنجليزية القاهرة فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ دون مقاومة تذكر يصحبها سلطان باشا الذى ركبته روح التشفى فى العرابيين فأمر بإلقاء القبض عليهم ووضعهم فى أضيق السجون وأصعبها ، كما امتلأت السجون بمن ناصر الثورة من العلماء والمديرين وعمد البلاد والأعيان والتجار وغيرهم حتى بلغ عدد المقبوض عليهم ثلاثين ألفا من المصريين ، وكثرت شكاوى المسجونين من طول مدة سجنهم دون محاكمة كما كثرت الوشايات ، وسنحت الظروف لأصحاب الأغراض والغايات أن يشوا بخصومهم ، فمن كانت له خصومة مالية أو عائلية كان يسعى للإيقاع بخصمه ويتهمه بمناصرة الثورة فيقبض عليه

ويرسل تحت الحفظ مقيدا بالحديد كما تنكر لقواد الحركة الوطنية أكثر من كان يناصرهم حيث " انقلبت الناس بانقلاب الأحوال " وانتشرت فى البلاد روح الاستكانة والنفاق ، وأنكر البعض دورهم فى الثورة وقذف كل منهم بالمسئولية على سواه .

وبعد أن وضعت الحكومة يدها على معظم زعماء الثورة أصدر الخديو أمرا عاليا فى ٢٨ سبتمبر ١٨٨٢ بتشكيل قومسيون " لتحقيق إقامة الدعوى على كل من ارتكب جريمة العصيان والتعدى على السلطة الخديوة سواء أكان مرتكبو هذه الجرائم مدنيين أم من زمرة العسكريين ، وصدرت الأوامر بتقديم عرابى وزملائه إلى المحاكمة وأحيطوا برقابة البوليس وكثفت الحكومة جهودها للقبض على الذين فروا إلى الخارج أو الذين لم يتيسر لها القبض عليهم فى الداخل وتم لها ذلك ، لم يخرج عن هذه القاعده سوى عبد الله النديم الذى حاولت الحكومة الترصد له والقبض عليه بكل الوسائل بل وأعلنت عن مكافأة كبيرة قدرها ألف جنيه لمن يقبض عليه حيا أو ميتا ، وهددت بإعدام من يؤويه هو وشيخ الحارة أو "التمن " الذى يتبع له .

ويرجع هذا الاهتمام الكبير بالقبض على النديم إلى مدى خطورة كتاباته وخطبه الملتهبة ، فهو الذى أقلق الأفكار ، ونعت الخديو بأقذع النعوت ، وشن عليه أقسى الحملات ، وتشهد على

ذلك كتاباته فى " الطائف " كما أنه الثورى الخطير الذى كان يخشاه الإنجليز ومع كل ذلك فقد انفرد النديم بمصير لم يشترك فيه أحد غيره وهو الاختفاء عن أعين السلطة ، لأن الذى تعود التنقل والحركة الخاطفة لا يمكنه أن يطيق السجن الطويل والمصير المحفوف بالموت فأعد عدته للاختفاء .

(١٣)
اختفاء النديـــم

اختفى النديم على أمل التوجه إلى الحامية المصرية فى دمياط - وهى التى رفض قائدها عبد العال حلمى التسليم للإنجليز فى أول الأمر أو السفر إلى بلاد الشام ومنها إلى أوروبا لمواصلة الجهاد، وكان نجاحه فى الاختفاء دليلا على مهاراته وذكائه، فبعد أن عاد من كفر الدوار إلى القاهرة فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ ذهب إلى داره بجهة العشماوى ليلا وفى الصباح أخذ ما خف حمله وخرج مع والده وخادمه وركبوا عجلة متجهين إلى بولاق، وهناك ودعه أبوه حيث ركب النديم وخادمه إلى القناطر الخيرية قاصدا دار أحد أصدقائه فأقام بها عشرة أيام تمكن خلالها من تغيير زيه الإفرنجى بثوب من الصوف الأحمر الخشن

الذى يلبسه مشايخ الطرق الصوفية ويعرف باسم " الزعبوط " وتعمم بعمامة حمراء وغطى عينيه بغطاء وأمسك بيده عكازا طويلا وأطال لحيته وأخفى شاربه فصار لا يعرفه حتى أقرب الناس إليه ثم سار بخادمه ليلا إلى الساحل فوجدا سفينة شراعية مقلعة إلى بنها فركباها ، وتظاهر النديم بأنه من مشايخ الطرق الصوفية فلم يلحظه أحد بل استضافه ملاحو السفينة تبركا به ولما اقتربت السفينة من بنها أغلق الكوبرى فأحس النديم بأن رجال البوليس سيفتشون السفينة فأخذ فى ذكر الله والتمتمة على حبات المسبحة وزاد فى تنكره فلم يشك أحد فى أمره ، وبعد انصراف رجال البوليس انتقل النديم إلى سفينة أخرى كانت فى طريقها إلى دمياط لكى ينضم إلى عبد العال حلمى ولكنه علم أن حاميتها سلمت للإنجليز فاضطر النديم إلى تغيير خطته وألهمه وعيه إلى أن يمضى إلى وسط جموع الفلاحين لحمايته من عيون الخديو والإنجليز فقصد ميت غمر ثم استأنف المسير منها بحرا إلى ميت النصارى ، وفى الصباح ركب مركبا إلى المنصورة ومكث مع خادمه فى مسجد الموافى بها ثلاثة أيام استضافه فيها الأهالى تبركا به ثم سافر هو وخادمه إلى(منية الغرقى) اسمها الحالى (ميت الغرقا) قاصدا صديقا أزهريا له اسمه الشيخ سعيد فكتم سره وأكرم وفادته ولم يضع النديم فى حسبانه البقاء عنده

طويلا حيث كان عازما على السفر إلى بلاد الشام ومنها إلى أوروبا .

وكان بالقرية وقتئذ أحد مشايخ الطرق الصوفية المشهورين وهو الشيخ " شحاتة القصبى" وكان النديم من مريديه فأرسل إليه يخبره بمكانه ، وكان لهذا الشيخ أتباع كثيرون يأمرهم فيطيعون ويدعوهم فيستجيبون ، ولما علم الشيخ بعزم النديم على اللجوء إلى بلاد الشام طلب منه التستر وعدم الخروج من البلاد حتى يقضى الله تعالى بالفرج . وقد كان الشيخ محقا فيما قاله ، فقد قبض على كل من فر من زعماء الثورة إلى الخارج .

أشرف الشيخ شحاتة القصبى والشيخ سعيد الأزهرى على تدبير أماكن لإبعاد النديم عن عيون الحكومة ، كما اختارا بعض الأشخاص موضع الثقة لمساعدة النديم فى محنته وإبلاغه بتحركات رجال السلطة ضده أولا بأول ، كما اتفق الشيخ سعيد الأزهرى مع النديم على وضع رموز للمراسلة بينهما حتى لا يعرف مكانه أحد لو عثر على شىء من المكاتبات بينهما .

ظل النديم مختفيا فى بيت صديقه الأزهرى نحو شهر اضطربت خلاله أعصاب خادمه الذى ضاق ذرعا بالاختفاء ، وأخذ يبكى طالبا العودة إلى أهله ، ولما خشى النديم من افتضاح أمره دبر له حيلة تدل على سعة الأفق ، فاشترى الجريدة الرسمية

وأخذ يتفحص فيها باهتمام - وكان الخادم أميا - ثم أظهر الجزع والتأسف وضرب كفا بكف وقال "لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم" ولما استفسر منه الخادم عما قرأ قال: "إن الحكومة قد جعلت لمن يرشد إلىّ ألف جنيه ولمن أتاها برأسك خمسة آلاف، فخاف الخادم وأخذ يبالغ فى التنكر زيادة عن سيده، كما غير النديم اسم الخادم من "حسين" إلى "صالح" حتى يكتمل تنكره .

شعر النديم بقسوة الاختفاء وزاد من وحشته المكان المظلم الرطب الذى اختفى فيه فلم يعرف الليل من النهار، ولم يتمكن من الكتابة أو القراءة إلا على ضوء مصباح صغير من الغاز كثير الدخان ومع ذلك فكر فى التأليف حتى يشغل وقته، ولكن صديقه المتستر عليه نصحه بتأجيل ذلك حتى تتحسن الأحوال . فانصرف النديم عن الكتابة وأخذ فى تعليم خادمه " القراءة والكتابة وحفظه جملة سور من القرآن الكريم وقد نجح فى ذلك .

ولما تطاير خبر مكان اختفاء النديم إلى الحكومة أرسل إليه الشيخ شحاتة القصبى خطابا مع الشيخ محمد الهمشرى عمدة "العتوة القبلية" وكان أحد مريديه يقول له فيه: "قم معه ولا تبرح من عنده حتى يأتيك إذنى ولى ثقة عظيمة لتقواه وحسن صلاحه وقوة يقينه ولطف سيرته" .

فخرج النديم مع الهمشرى إلى بلدته، ولم تمض بضع ساعات على مغادرته للمخبأ حتى اقتحمت الشرطة الدار وفتشتها ولكن النديم كان قد سبقهم.

نزل النديم ضيفا على الشيخ الهمشرى، وأقام فى داره نحو ثلاث سنوات فأكرمه وآواه ولم يبلغ أحدا من أفراد أسرته به سوى زوجته، وفى منزل الهمشرى أحس النديم بالفراغ والوحدة وانتابته الوساوس والأوهام، وفكر فى شغل وقته بالتأليف والكتابة ووجد فى صديقه الشيخ "سعيد الأزهرى معينا على إمداده بالكتب والمراجع وما يحتاج إليه، كما أخذ يصنع الحبر من هباب الفرن، وبدأ يفكر فى خطة للكتابة واستقر رأيه على كتابة مؤلف بعنوان "كان ويكون" وبعد أن كتب المقدمة تذكر صديقا فرنسيا كان قد عرفه من قبل بالإسكندرية ويمتلك ضيعة قريبة من مخبئه ففكر فى الكتابة إليه لعله يجد عنده ما يساعد على ما شرع فيه ولما علم بذلك الشيخ الهمشرى فزع وحاول أن يثنى النديم عن عزمه ولكن النديم طمأنه بقوله: "لا تخش شيئا فإنى واثق بذمته وعلو همته" وبعد تردد الشيخ الهمشرى نحو ساعتين حمل رسالة النديم إلى الفرنسى فقرأها ثم أعطاها لزوجته فقرأتها ثم أعادتها إليه فمزقها زيادة فى الحذر ثم حضر متخفيا إلى مكان النديم الذى أخبره بنيته على الكتابة

والتأليف وطلب منه المساعدة وإحضار بعض الكتب التاريخية للاستعانة بها ، ثم تناقشا فى خطة الكتابة وانتهيا بأن توضع على هيئة أسئلة وأجوبة فى المشكلات الدينية والخلافات السياسية بين الشرق والغرب على أن يقدم الفرنسى الأسئلة ويجيب النديم عليها وبعد ذلك يقوم النديم "بسرد تاريخ مصر سردا مرسلا أخذ الفرنسى يزور النديم على فترات متقاربة وكان يحضر زوجته أحيانا معه لتشترك فى المناقشة وتسهم بآرائها فيها كما كان يحضر هذه المناقشة أحيانا " سعيد الأزهرى " صديق النديم وكانت تطول المناقشة أحيانا ويسهم كل منهم بآرائه فيها ، وعندما تنتهى المقابلة يخلو النديم إلى نفسه ويسجل ما دار من حديث ثم يعرضه بعد ذلك عليهم قبل الخوض فى غيره .

(١٤)
تخبط أجهزة الحكومة فى تحرياتها عن النديم

وبينما كان النديم مشغولا فى كتابه كانت الحكومة ترصد له الجواسيس والأعين فى عامة البلاد المصرية من أسوان إلى الإسكندرية إلى السويس إلى دمياط إلى العريش للبحث عنه، ويدأت السلطات تتخبط فى تحرياتها فى حين أكدت بعض أجهزتها أنه مختف داخل المحروسة وأنهم سيستمرون فى تحرياتهم عنه حتى يتمكنوا من الوقوف على الجهة المختفى فيها والقبض عليه، وطالبوا شيوخ الحارات بالقاهرة ببذل الهمة فى البحث عنه . وكان النديم يتنقل خارج القاهرة بين القرى والعزب، وكلما شددت الحكومة فى البحث عنه والقبض عليه كان ينشر الشائعات عن هروبه إلى الخارج .

وبعد أن عجزت الحكومة فى القبض على النديم أصدرت عليه حكما غيابيا بالنفى المؤبد وإبعاده عن الأقطار المصرية ولكى تبرر فشلها فى القبض عليه نسجت حوله الشائعات بأنه مات حتى ينساه الناس فخرجت شائعة بأن النديم قبض عليه وقتل خنقا فى دمنهور ، وأخرى بأنه انتحر يائسا .

أما الوطنيون فقد نسجوا حوله القصص البطولية ، فمنهم من قال إنه استشهد فى معركة التل الكبير ، ومنهم من ذكر إنه ركب مع العرب وخرج إلى الصحراء ، ومنها سافر إلى المغرب الأقصى .

وفى تلك الحقبة استقر النديم فى مخبئه بالعتوة القبلية نحو عام مات بعده الشيخ " محمد الهمشرى " ففقد النديم بموته الأمان على نفسه ، كما أحس الجهاز المشرف على اختفاء النديم بالخطر فأخذوا يرقبون الأمور بنفوس قلقة ، ووكلوا إلى الشيخ سعيد الأزهرى مهمة الذهاب إلى النديم وتحرى الموقف منه قبل أن تكتشف الحكومة أمره ، ولما لم يكن يعلم بأمر النديم فى " العتوة القبلية " سوى زوجة الشيخ الهمشرى فقد استدعت أكبر أبنائها الذى لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره وأخبرته " أن ضيفهم المختفى عندهم هو عبدالله النديم طريد الحكومة " الذى جعلت لمن يرشدها عليه ألف جنيه وسألته "هل يطمع فى المكافأة ويسلمه

أم يكون كأبيه فى حفظ الجار وحماية الذمار " فوعدها بأن يكون كأبيه فى حفظه .

هكذا حسمت زوجة الهمشرى موقف النديم تجاه ابنها الأكبر وكانت مثالا لشهامة ونبل المرأة المصرية فى المحنة وشد أزر المظلوم كما كانت مثالا طيبا فى المروءة والشهامة والإقدام استمر النديم فى ضيافة أسرة الهشمرى نحوا من أربع سنوات ضيفا كريما وسره فى أمان وكتمان .

ولما تسرب خبر النديم إلى بعض أقارب أسرة الهمشرى وشوا به ، مما اضطر النديم إلى الفرار ليلا من القرية ، ولم يكد يبتعد عنها حتى وصل البوليس إليها واقتحم المخبأ الذى به النديم فلم يجد له أثرا .

تردد النديم على كثير من القرى والكفور يصحبه " السيد المغازى" أحد الوطنيين من أفراد الجهاز المشرف على اختفائه ، وكان لا يذهب إلى مكان إلا ويظهر باسم جديد وبشكل جديد ، فهو مرة شيخ من مشايخ الطرق الصوفية ، ومرة عالم يمنى . ومضى النديم ينتقل بين قرى الغربية نحو ثلاثة شهور حتى استقر بقرية " الكوم الطويل " نحو سنتين على أنه عالم من الحجاز يدعى الشيخ " يوسف المدنى " وقام بتدريس الفقه والتوحيد والنحو بمسجد القرية كما كان يخطب الجمعة فى أهاليها .

لقد كان انتشار الجواسيس فى كل مكان لمعرفة مكان النديم سببا فى عدم استقراره، فجاءه خبر الجهاز المشرف على اختفائه بضرورة الخروج من "الكوم الطويل" فقابل النديم عمدة القرية وكشف له عن نفسه بأنه النديم طريد الحكومة ثم طلب منه حمارين ينتقل بهما هو وخادمه ففعل وذهب النديم إلى المحلة الكبرى وتستر هناك عشرين يوما متخفيا داخل وكالة، ثم سار إلى قرية "كفر الدبوس" حيث مكث بها ثلاثة شهور ثم قصد سنهور حيث أقام بطرف "سيد أحمد أفندى عبد الخالق" وأقام عنده مدة ثم ذهب إلى "العجوزين" وبعدها نزل إلى القرشية" حيث أقام ضيفا لدى "أحمد بك المنشاوى" بمنزله فى عزبة ملكه ومكث بها بين خمسة أو ستة شهور متنكرا فى زى يمنى ومطلقا على نفسه اسم "الشيخ على اليمنى".

ولما كان مجلس المنشاوى مجلس أدب وعلم فقد تصدر النديم مكانة كبيرة فيه وأخذت شهرته فى الانتشار حتى وصلت إلى القاهرة.

استمر النديم ضيفا على أسرة المنشاوى نحو خمسة شهور رحل بعدها بحجة السفر إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج، ثم رجع متخفيا فى زى مغربى وأطلق على نفسه "سى الحاج على المغربى" ونزل ضيفا على صديقه الأديب "محمد التميمى" وظل

عنده شهرا انتقل بعده إلى قرية " الدجمون " وظل أسبوعا ولما أحس بانكشاف أمره وعزم الحكومة القبض عليه خرج إلى قرية "البكاتوش " حيث أقام إلى دار جاره "أحمد جوده" وكان رجلا قوى البنان لا يبالى بظلام الليل . فصار يصحب النديم إذا أراد الانتقال من بلد إلى بلد فى الليل الحالك ويتجشم معه أضيق المسالك ، كما كان ينتقل أيضا إلى دار الحاج " إسماعيل الكردى " حيث مكث عنده شهراً تقريبا ، انتقل بعده إلى شباس الشهداء وأقام بمنزل "محمد معبد الحلاق" الذى لقى عنده المروءة والكرم ولما زاره صديقه الشاعر والأديب "محمد شكرى " بشباس الشهداء أخذه معه إلى " دسوق " مدعيا أنه ابن عمه أتاه زائرا من الحجاز ومكث عنده نحو ستة شهور عاش خلالها فى حيرة وقلق . ولما أحس بانكشاف أمره ومعرفة الحكومة بمكانه انتقل إلى "شباس الشهداء "ولكنه لم يمكث بها طويلا حيث عاد إلى "دسوق" ومكث بها ستة أشهر أخرى خرج بعدها إلى "البكاتوش" ولحقت به زوجته بينما أقام خادمه وزوجته بالجميزة .

لقد قاسى النديم الويلات فى فترة الاختفاء حيث مرت به لحظات تعاسة وشقاء كانت تثور لها نفسه وتتوتر منها أعصابه أحيانا . فمثلا كان يجد نفسه حبيسا فى حجرة مظلمة قذرة يفصل فى منازعات بين زوجته وزوجة خادمه على زاد بسيط او

تقسو عليه زوجته وتسيء معاملته إلى حد أن تلطمه على فمه، ومع ذلك كان يترضاها كارها ويصالحها حتى لا يتركها ترشد عنه، ويزيد من همه ما يقرؤه فى الصحف أن " سلطان باشا " وبعض الأعيان يقدمون الهدايا والنياشين لقواد جيش الاحتلال فتثور نفسه ويبكى، وأحيانا كان يشعر بالخطر يهدده فيشتد فى الاستخفاء حتى أنه ظل بقاعة مظلمة يرشح الماء من أرضها لقربها من ترعة لمدة تسعة أشهر لأن الشرطة كانت فى مكان قريب منه تجد فى البحث عنه، أو أن تجيئه الأنباء أن والده ووالدته وشقيقه فى حالة من الضنك الشديد لتضييق الحكومة عليه، أو أن كتبه ومؤلفاته التى أنفق فيها تسعة عشر عاما سقطت فى النيل أثناء هجرة أهالى أسكندرية بعد ضربها، ولكن انهماك النديم فى الكتابة وقراءته للكتب التى كان يحضرها له صديقه " الشيخ سعيد الأزهرى " وإحساسه بحب الناس له والوقوف بجانبه كان كل ذلك يخفف من آلامه، ويبعث فى نفسه القدرة على تحمل محنة الاختفاء .

لقد أتاحت مدة الاختفاء للنديم الفراغ ما مكنه من الاشتغال بالقراءة والدراسة والتأليف، فأتم فى مدة الاختفاء عشرين مؤلفا، ويتضح ذلك من قوله : "وقد تم لى الآن عشرون مؤلفا بين صغير وكبير فانظر إلى آثار رحمة الله اللطيف الخبير، كيف

جعل أيام المحنة وسيلة للمنحة والمنة . طلبت زوجة النديم زيارة زوجة خادمه بالجميزة فسمح لها ، وهناك تشاحنت الزوجتان فهرول الخادم مسرعا إلى " البكاتوش " لإبلاغ النديم الذى يخشى انكشاف أمره فأسرع إلى الجميزة متنكرا تحت اسم الشيخ إبراهيم الشهاوى ليصلح بينهما وبقى النديم هناك شهرين طاب له خلالهما المقام والتف حوله العمدة " الشيخ عبد الغنى " العالم بالبلدة وبعض الأهالى لتلقى العلم منه ليلا والاستماع إلى وعظه ومسامراته .

(١٥)
الوشاية بالنديم والقبض عليه

وفى أثناء وجود النديم بالجميزة اشتبه فيه رجلان إحدهما يسمى "حسن الفرارجى الجهادى " وكان قبل أن يحال إلى المعاش من عساكر البوليس السرى الذين اشتركوا فى البحث عن النديم ، والآخر يسمى " سيد أحمد الهيتمى" فأبلغا الداخلية ، ولما وصل الخبر إلى الخديو اهتم بالأمر وأمر بتكليف مدير الغربية بالتحرى عن هذا الموضوع ومعرفة الحقيقة وعلى أثر ذلك صدرت الأوامر إلى "محمد أفندى فريد" وكيل حكمدار البوليس بالقبض على النديم فتنكر بملابس ملكية وتظاهر أنه من تجار الأقطان ، ودفعا للشبهات لم يجتمع بأحد من رجال الحكومة فى المركز بل أرسل تعليماته إلى معاون بوليس السنطة أن يعد قوة

عسكرية من المشاة والفرسان فامتثل المعاون للأمر دون أن يعلم القصد من ذلك . ثم طوق القرية بالجنود وأمر الخيالة أن ينتشروا فى الناحية خوفا من فرار النديم ولما " أزف وقت صلاة العشاء . . . دعا إليه عمدة الناحية سرا ثم بث العساكر وأمرهم أن يحاصروا المساجد ويمنعوا من بها من الخروج . . ودنا وكيل الحكمدار حتى وقف من باب المنزل الذى قيل إن النديم مختبئ فيه ومعه عمدة الناحية ثم أمر العمدة أن ينادى باسم الشيخ إبراهيم حيث كان النديم متخفيا تحت هذا الاسم فامتثل العمدة وكرر النداء فأجابته امرأته من الداخل أن الشيخ فى الجامع " وكان النديم فى البيت فأراد أن يأخذ حيطته حيث صعد إلى سطح المنزل للاختباء، ولكن اثنين من رجال الضبطية كانا يقفان على رابية عالية لمراقبة ما يجرى على سطح المنزل، فلما لمحا به حركة غير عادية أبلغا رئيسهما الذى أمر بحشو البنادق وحمل السلاح ثم أحاط رجال البوليس بالدار وأخذوا يطرقون الباب طرقا عنيفا، ولما أيقن النديم أنه مأخوذ لا محالة فتح لهم الباب وواجههم بكل جلد فلم يعرفه قائد القوة؛ حيث كان مرتديا زى الدراويش وعلى رأسه عمامة خضراء مكورة ومطلقا لحيته فسأله عن اسمه فقال : "سبحان الله أتجهل اسمى وأنت مأمور بالقبض على؟! أنا عبد الله النديم، فقبض عليه ثم قبض على خادمه

وكان ذلك ليلة السبت ٣ أكتوبر ١٨٩١ .

بدأ التحقيق مع النديم وخادمه كل منهما على انفراد وابتدأ بالخادم الذى أقر بكل شىء خشية الضرب والتهديد فشرح بإسهاب أسماء الجهات التى اختبأ فيها وأسماء من تستروا على سيده وكيفية حصولهما على المئونة والمال، ثم استجوب النديم فذكر أنه لم يكن له محل إقامة مخصوص وأدلى بأسماء من آووه مع أنه أنكر أنهم يعرفون حقيقته فقبض عليهم البوليس وأودعوا السجن .

نقل النديم إلى طنطا للتحقيق معه فى النيابة وكان " قاسم أمين " رئيسا لنيابة طنطا فأحسن معاملته واعتنى بامره، فأمر بأن ينظف مكانه بالسجن، ولا يمنعه أحد من شرب القهوة والدخان كما أرسل إليه أحد الأشخاص للتأكد من حسن معاملته وعندما استدعاه للاستجواب قال له : "أنت حر فى كلامك فقل ما شئت " احتجزت نيابة طنطا النديم حتى تم الاتصال بالمسئولين فأخطرت المعية السنية ونظارة الداخلية بالقبض عليه، كما اتصل قاسم أمين بالنائب العمومى بخصوص النديم فجاءه الرد بأن المسألة إدارية لا تخص المحاكم .

والجدير بالذكر أن الواشيين بالنديم كتبا إلى المعية السنية يطلبان المكافأة، ولكنها كانت موقوتة بعام واحد، ولما مضى

على اختفاء النديم أكثر من تسعة أعوام فإنه لم يتيسر لهما صرفها .

لقد أحدث خبر القبض على النديم دويا شديدا فى الأوساط الحكومية والشعبية فتحدث الناس عنه ، وذكروا ماضيه الوطنى ، وكثرت الظنون واختلفت الآراء فى شأنه وأخذ الغضب يشتد فى النفوس من الرجلين اللذين أبلغا عنه حتى أنهما أرسلا إلى المعية السنية يقولان إنه بالنسبة إلى كونهما أخبرا عن النديم أصبحا غير آمنين على مالهما وحياتهما ويلتمسان التأمين عليهما .

اجتمع مجلس النظار ووالى اجتماعاته للنظر فى أمر النديم بعد مدة اختفائه الطويلة ، وفى الخطة الواجب اتخاذها ، وتداولوا فيما ينبغى تقريره ، فرأت نظارة الداخلية إبعاده إلى جهة "بيزا" بإيطاليا أو ما يماثلها كما عرض "كتشنر باشا" على المجلس إبعاد النديم إلى جهة " سواكن بالسودان فاستصوب الخديو رأيه ، ولكن تغير الرأى فى الجلسة المنعقدة بتاريخ ١٢ أكتوبر ١٨٩١ حيث قرر المجلس عملا بالأمر العالى الرقيم أول يناير ١٨٨٣ القاضى بتبعيد عبدالله النديم من الأقطار المصرية أن تقوم نظارة الداخلية بتبعيد المذكور لإحدى مدن بر الشام ، وعند نزوله فى الوابور يعطى له خمسون جنيها على سبيل المساعدة " وإطلاق سراح الذين ساعدوه فى الاختفاء وجاءت الأوامر إلى

مدير الغربية بإرسال النديم إلى الإسكندرية حتى ينقل منها إلى بر الشام .

نزل النديم في قطار السكة الحديد يخفره جماعة من الجند ومعاوني المديرية ، ومنع رجال السلطة الناس من رؤيته ولما وصل إلى الإسكندرية وضع في سجن الضبطية حتى وصلت السفينة " وابور الرحمانية " إحدى بواخر الشركة الخديوية المسافرة إلى يافا حيث نقلته إلى محل نفيه ، وقد ودعه أقرباؤه ومحبوه كما ودعه " عثمان باشا عرفي " محافظ الإسكندرية .

أبحر النديم إلى يافا فوصلها في ١٨٩١/ ١٠/ ١٥ حيث استقبله أهلها ، كما استضافه " السيد على أفندي أبو المواهب مفتيها " لمدة شهر ثم اتخذ النديم لنفسه دارا أصبحت مقرا للأدباء والعلماء وشغل نفسه هناك بالتأليف فكتب عن طائفة السامرة كتابا سماه " التذكرة العامرة بأحوال السامرة " تحدث فيه عن دينهم وتاريخهم ، كما ألف كتابا بعنوان " النحلة في الرحلة " رثى فيه الخديو توفيق لموافقته على الاكتفاء بنفيه كما ذكر فيه فضلاء الشام وأمراءه .

(١٦)
العوامل التى ساعدت النديم على الاختفاء

إنه لمن النادر أن يتحمل إنسان ما تحمله النديم من محن ومتاعب ومصاعب فى أثناء فترة الاختفاء دون أن تضعف نفسه أو يستسلم، ولكن نفسه القوية وعزمه المتين وثقته بالله تعالى كانت فوق كل الصعاب .

وفيما يلى نذكر العوامل التى ساعدته على تحمل محنة الاختفاء :

١-الإيمان بالله والثقة فى قدرته :

عندما شددت الحكومة فى البحث عن النديم وملأت صحفها بالمفتريات عليه وعلى زملائه من الثوار قال : أما ثقتى بالله تعالى فإنها أكبر وأعظم من خطوبى وكروبى وإنه لا يقع الا ما

يريده الله تعالى وإن العبيد لا يمكنهم أن يحدثوا فى الكون ذرة أو يغيروا شيئا من مراد الله تعالى. مما يوضح إيمانه بالله والثقة فى أنه لن يصيبه إلا ما أراد الله له.

٢-قدرته الفائقة على التنكر :

كان لدى النديم مقدرة فائقة على إجادة فن التنكر، إذ كان يجوب البلاد منكرا هيئته ولهجة كلامه منتحلا شخصيات مختلفة وأعمالا متنوعة، بحيث كان يصعب على كل الناس- حتى أقرب الناس إليه - معرفته. ويمكن تعليل ذلك بمعرفته للهجات العربية المختلفة، حيث نشأ وهو صغير فى منزل يجاور سوق المنشية بالإسكندرية، وفى هذه السوق كانت حوانيت الشوام والمغاربة والحجازيين الذين اتلقط منهم النديم لهجاتهم.

٣-الذكاء والحذر الشديد:

ساعد ذكاء النديم وحذره الشديد وتوقعاته للمخاطر على سهولة الاختفاء فكانت اتصالاته مع أصدقائه يتبع فيها السرية والحذر الكاملين، وكانت مراسلاته لهم تكتب برموز سرية، كما أكد النديم على أصدقائه وأهله بعدم زيارته فى مخبئه حتى لا تقتفى الحكومة أثرهم وتعرف مكانه، ويتضح ذلك من رسالة إلى صديقه الأزهرى حيث قال فيها: "إذا حدثتك نفسك بالحضور عندى فراجعها وقر مكانك فإنك ربما اتبعت بمن يقف

على منتهى سفرك فقد علمت من كتاب بعض إخوانى أن الحكومة هاجمت بيتك وفتشته فلا ينبغى أن تخاطر بنفسك فتضرها وتضرنى معك ، كما كان النديم يضغط على عواطفه فرغم اشتياقه إلى رؤية والديه فقد رفض حضورهما بالقرب منه ، فعندما سأله الخواجة الفرنسى أن يحضرهما إلى أبعاديته ليريحهما من المتاعب التى يتعرضان لها طلب منه النديم العدول عن ذلك حتى لا يتبع جواسيس الحكومة أثرهما ويعرفوا مكانه . وقد كان النديم على حق فى هذا ، فقد كانت السلطات تتبع والده ووالدته وأخاه فى تنقلاتهم ، وهجموا أكثر من مرة على الأماكن التى ترددوا عليها للوصول إليه .

ومن الأمثلة على حذر النديم أيضا أنه عندما طلب الخواجة الفرنسى منه أن يحضر زوجته معه للاشتراك فى مناقشاتهما وافق النديم على ذلك بشرط أن تتخفى فى ثياب بلدية بقوله : "إن كان عندها ثوب وبرقع فبها وإلا أعطيناك من هنا ثيابا وطنيا وبرقعا لتتستر بها فإن مجيئها بثيابها الإفرنجية يوجب توجه الأنظار إليها وإعمال الأفكار فى الباعث على التردد» .

كما يتضح حذره أيضا عندما طلب منه الخواجة الفرنسى أن يشترى له قفطانين رجاه النديم أن تكون أكمامهما طويلة كأكمام الفقراء ، فقد يضطر للمشى أو القعود مع الناس فيرون لبس فقيه

أو عالم، كما طلب منه شراء لباسين لأن ألبسته فى صورة البنطلون ولها أربطة فى الرجلين، والفقهاء لا يلبسون مثلها فيكون ذلك محل الانتقاد والفكر فى حقيقته.

٤-شغل وقت الفراغ فى التأليف:

شغل النديم أوقات فراغه فى التأليف مما أبعده عن التفكير فى الهموم، فألف عشرين كتابا، كما كتب الرسائل المطولة إلى أصدقائه.

٥-وفاء الشعب المصرى ومروءته :

لقد مكن أبناء الشعب النديم من الاختفاء وأشرفوا على تنقلاته ومساعدته وهؤلاء كثيرون وإن كان أبرزهم الشيخ "شحاتة القصبى" والشيخ "محمد الهمشرى" وزوجته والشيخ " سعيد الأزهرى، والشاعر والأديب "محمد شكرى" وإبراهيم حرفوش عمدة البكاتوش وأحمد المنشاوى باشا "ومحمد معبد الحلاق" والشيخ «خليل» مأذون العتوة القبلية وغيرهم .

٦- وفاء الخواجة الفرنسى وزوجته للنديم:

كتم الخواجة الفرنسى وزوجته سر النديم وكانا يحضران إليه بالمخبأ فى سرية تامة حتى لا يكشف أحد أمرهما كما كان الخواجة الفرنسى يحضر للنديم ما يحتاج إليه من لوازم بمجريات الأمور فى البلاد وما تكتبه الجرائد عن العرابيين، كما أطلق الشائعات

عن فرار النديم إلى الخارج حتى تتوقف السلطات فى البحث عنه بالداخل .

٧- إيمان الفلاحين بعدالة الثورة :

لقد آمن أبناء الريف أن ما قام به عرابى كان إجابة لمطالبهم العادلة وأنه لم يهزم إلا نتيجة الخيانة وقد عبروا عن ذلك بقولهم : " الولس هزم عرابى" ، وقد صور الصحفى "سليم النقاش" أثر الهزيمة فى نفوس أهل الريف بقوله : وكانت تلوح فى الواقع ملامح الأسف على وجه كثيرين من أهل الريف" .
هذا إلى جانب ما هو معروف عن مروءة أهل الريف عند الشدة وشهامتهم فى مساعدة المظلوم وإيواء الضعيف ، فمع أن كل من تستروا على النديم لم يكن بينهم وبينه نسب ولا قرابة ولم يدخل بلادهم قبل الاختفاء لأى غرض من الأغراض فقد ساعدوه على الاختفاء رغم تهديدات الحكومة بإعدام من يؤويه أو يخفيه أو ينقله من جهة إلى أخرى ، ولم تغرهم المكافأة الكبيرة التى رصدتها الحكومة وهى ألف جنيه مع أن معظمهم فقراء ، وقد وصف النديم شهامة هؤلاء بقوله : " وجدت من رجال الهمم من يحفظون العهود والذمم ويقابلون الشدائد بالعزائم ، ولا ترجف قلوبهم للعظائم " وقد ذكر لهؤلاء جميلهم على صفحات مجلة الأستاذ .

٨- الأمل فى الثورة ضد الاحتلال :

أمل النديم أن تنتفض البلاد مرة أخرى ضد الاحتلال ويقود زمامها رجالها، ويقفوا فى مواجهة الظلم والطغيان، ويتضح ذلك من خطاباته إلى عرابى بسيلان حيث كان يخبره فيها بما حدث للبلاد فى ظل الاحتلال، ويبث فيها آماله الكبيرة فى انتفاضة الشعب مرة أخرى.

٩- تنقل النديم بين القرى والكفور والابتعاد عن المدن :

استطاع النديم التنقل بين القرى والكفور بذكاء والابتعاد عن اللجوء إلى المدن، وذلك لدرايته أن قوات البوليس فى الريف محدودة وأن السلطة مركزة فى المدن حيث يوجد فى الريف الاستقرار، كما أن المشكلات الداخلية بين أهل الريف تحل على المصطبة دون اللجوء إلى البوليس .

هكذا قضى النديم أيامه ولياليه فى أثناء حقبة الاختفاء التى زادت علي تسع سنوات، وهكذا كان الشعب المصرى أصيلا مع رجاله فى أثناء الشدائد .

(١٧)
الخديو عباس الثانى والعفو عن النديم

خرج الشعب بعد هزيمة العرابيين فاترا مستسلما قلقا، واستغل البعض ذلك القلق العام لإرضاء مصالحهم، واختفت فكرة الواجب، وكادت هزيمة التل الكبير تقضى على الروح الوطنية، بل وخيل إلى البعض أن الحركة ماتت بسجن زعمائها، حيث أحس الشعب المصرى بنوع من الذهول عقب الثورة، وأخذ يلتمس زعماءه فوجدهم بين أسير يعانى آلام السجن أو النفى وهائم على وجه الأرض، ومع أنه قد ظهرت فى أواخر عصر توفيق بشائر بعث وطنى فإن مصر لم تكن بعد قد استردت أنفاسها، وباعتلاء عباس الثانى أريكة الخديوية بدأت رحلة جديدة من مراحل الحركة الوطنية فى مصر، فقد فرح المصريون بالخديو الجديد، لأنهم كانوا يبغضون

والده فأقبلوا عليه وأبدوا استعدادهم لوضع يدهم فى يده ، وتوسموا فيه خيرا بعد أن وجدوه مستاء من سيطرة الإنجليز على كل مرافق البلاد الحيوية دونه ، واعتزامه وضع حد لهذه الحالة حتى لا يكون دمية فى يد الإنجليز ، ورسم لنفسه طريق مقاومة السيطرة البريطانية فى أوائل حكمه ، بقصد أن تكون له يد فى إدارة الحكومة مما سبب متاعب مزعجة للحكومة البريطانية ؛ فتقرب إلى الشعب حيث كان يستقبل طوائفه كل شهر واتصل بالعلماء والأعيان وطاف بالأقاليم وانتقد سياسة والده فى الاستسلام للإنجليز وعاب على رجال المعية ضعفهم ولم يدع فرصة للتقرب من الشعب إلا واقتنصها فأصدر عفوه عن عدد كبير من مسجونى الثورة العرابية ، وأمر بإلحاقهم بوظائف مدنية فى نظارتى الداخلية والمالية وبفروع النظارات والمأموريات وأعاد إليهم نياشينهم ، كما أصدر عفوه عن عبد الله النديم وأباح له العودة إلى مصر فوصلها فى ٩ مايو ١٨٩٢ وظل النديم يتردد بين القاهرة والإسكندرية أكثر من شهر ثم استقر بالقاهرة ، فوجد أن تغييرا كبيرا قد حدث بالبلاد حيث وطد الإنجليز أركان حكمهم ، وتغلغلوا فى جميع مرافق البلاد الحيوية وكأن الأمر قد استتب لهم تماما ، كما وجد أن الشعب الذى تركه وهو يتأجج وطنية قد خيمت عليه روح الهزيمة والاستسلام وانتشرت بين أفراده موجة الانحلال الخلقى .

(١٨)
استئناف النديم للجهاد

ومع أن أحوال النديم الصحية قد تضعضعت حيث ضعفت صحته من آثار الجهود التى بذلها والإرهاق النفسى والجسمى الذى تعرض له فى أثناء الاختفاء والنفى، ومع أنه كان باستطاعته أن يكتفى بما قدم من تضحيات فى سبيل مصر وأن يجنح إلى مصانعة الاحتلال فينال بهذا إحدى الوظائف الكبرى فى نظارة المعارف أو غيرها ويخلد إلى الراحة والرخاء فإنه لم يحد عن مبادئه، ولم يتنكر لها بل ظل مخلصا وفيا وأبت عليه وطنيته إلا أن يستأنف الجهاد.

أخذ النديم يدرس أحوال البلاد ليعرف ما طرأ عليها فى أثناء غيابه، وحاول إعادة الثقة إلى الشعب الذى اجتمعت عليه

الأحداث لتغير من نفسيته حيث انتشرت روح الجبن والنفاق والنفعية وكان سبيله إلى ذلك "الخديو عباس الثانى" إذ وجد فيه أميرا شابا طموحا وثاب العزيمة فعقد عليه الأمل فى تنشيط حركة المقاومة ضد الاحتلال، وطالب المصريين كافة بمؤازرته ووصفه "بالهمام الحازم الصادق الوطنية المحب لجميع أجناس رعيته على اختلاف أديانهم الساعى فى منح الوطنيين حقوقهم وتمتعهم بخصائصهم الإدارية». ولما كانت الظروف قاسية بالنسبة إلى النديم والشرط الذى صحب العفو عنه هو أن لا يعمل فى السياسة، فهو لا يستطيع الطواف بالبلاد أو أن يعتلى المنابر ويخطب فى المساجد والمجالس كما كان يفعل من قبل، ولم يكن أمامه من سبيل للوصول إلى الشعب إلا عن طريق الصحافة، ولكن كيف ذلك وتاريخه حافل بالتوتر مع الإنجليز الجاثمين على صدر البلاد؟

استطاع شقيقه عبد الفتاح نديم الحصول على تصريح من نظارة الداخلية بإصدار مجلة تحت اسم " الأستاذ" ثم وكل عبد الله النديم فى تحريرها وترتيب وسائلها، وقد نالت هذه المجلة من الشهرة والانتشار ما لم ينله سواها من الجرائد الوطنية منذ أعوام، حيث لقيت إقبالا عظيما من الجمهور دل على عظيم مكانة صاحبها فى النفوس، كما كانت شديدة التأثير فى أفكار

أبناء الأمة على اختلاف نحلهم حتى بلغ عدد ما يطبع منها ثلاثة آلاف نسخة، فقد "أقبل عليها المشتركون من البلدان كافة حتى الأميون، وكل يستعذب عباراتها ويتلذذ بسماعها، حتى بلغ عددهم فى القاهرة وحدها ٨٦٠ (ثمانمائة وستين) مشتركا وفى خارجها ١٧٨٠ (ألفا وسبعمائة وثمانين) مشتركا.

وفى تلك المدة أخذ الجفاء يزداد بين كل من الخديو عباس الثانى واللورد كرومر وأخذت الحكومة البريطانية تلوح للخديوى بضرورة اتباع سياسة والده إذا أراد الاحتفاظ بعرشه، ولكنه لم يستمع إلى ذلك بل زاد من تقربه إلى الشعب وأيد الحركات المناوئة للاحتلال مما دفع عبد الله النديم إلى الذود عنه وجمع الناس حوله ومطالبتهم بالخضوع له والاعتراف بسيادته وسلطته عليهم، ولما أقال الخديو رئيس النظار "مصطفى فهمى" صنيعة الإنجليز وموضع ثقتهم، حدثت أزمة بين الخديو والإنجليز عرفت فى التاريخ بأزمة الانقلاب الوزارى كشف النديم خلالها النقاب عن كراهيته للاحتلال فقام يستنهض الهمم وعلت لهجته فى إثارة العواطف القومية ضد الاحتلال والمضى على مؤازرة الخديو، وبدا ذلك واضحا فى مقاله الطويل شديد اللهجة الصادر فى ١٧ يناير ١٨٩٣ تحت عنوان "لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا" حيث دعا فيه إلى الالتفاف حول الخديو، كما رد على

افتراءات الأوربيين فى التقليل من شأن الشرقيين لتبرير أسباب احتلالهم لمصر ، كذلك حث النديم من خلال هذا المقال الشرقيين على العمل من أجل مقاومة الاستغلال الأوربى مبينا لهم أسباب تقدم الغرب وتأخر الشرق ، كما كتب مقالا تحت عنوان " الحقوق المقدسة" بين فيه حق الخديو فى تعيين الوزراء وانتقد التهديدات الإنجليزية للخديى بالعزل ، كما نازل الجرائد المعارضة للخديو فى قوة ووضوح وكانت له مواقف عنيفة مع أصحاب "المقطم" الذين مكنوا للإنجليز من مصر فكان فى خصومته لهم لينا فى قسوة وهينا فى عنف واستمر على هذه النغمة فى الأعداد التالية من الأستاذ فكتب مقالا بعنوان : "هذه يدى فى يد من أضعها؟" طالب فيه أبناء وطنه بالوقوف بجانب الخديو ووضع أيديهم فى يده ، وذكر أن الذى يضع يده فى يد الأجنبى خير له أن يقطعها من وضعها على هذا المنوال ، كما طالب بتجنب تقليد الأوربيين والمحافظة على حقوق الوطن دون التعرض لحقوق الأجانب المقيمين فى مصر أو النزلاء منهم .

ثم اتهم أصحاب "المقطم" بأنهم الأجراء الذين يسيئون إلى أمتهم باستحسانهم الاعتراف بسلطة الإنجليز ، وهكذا كانت مقالات النديم صدى لما يحدث من أزمات بين الخديو والمعتمد البريطانى وصدى أيضا لما يعانيه الشعب فأثبت أن يحمل بين

جنبيه نفسا أقوى من الكوارث وعزيمة لا يوهنها الفشل ، فقد استطاع عن طريق صحيفة الأستاذ أن يشعل نار الوطنية المصرية من جديد فخرجت المظاهرات لأول مرة بعد الاحتلال تؤيد موقف الخديو ، وتهتف ضد الاحتلال فيخرج الشباب وفى مقدمتهم طلاب مدرسة الحقوق وعلى رأسهم مصطفى كامل يقتحمون إدارة جريدة المقطم ويحرقونها لانحيازها ضد الوطن والخديو وإظهارها روح العداء ضد "الوطنية المصرية وروح النهضة الأهلية التى انتشرت بين طبقات الأمة" ، مما دفع السلطات الإنجليزية إلى التهديد بالتدخل بحجة المحافظة على الأمن العام كما هرع الناس إلى سراى عابدين يهنئون الخديو على ثباته فى موقفه من الأزمة ، ومع أن النديم أشعل نار الوطنية المصرية خلال الأزمة ودفع أبناء وطنه إلى الوقوف بجانب الخديو ومساندة موقفه فى المحافظة على حقوقه فقد نادى بأهمية اتباع الهدوء حتى لا تتخذ إنجلترا من ذلك فرصة لاتهام المصريين بالتعصب الدينى .

توطدت أواصر الصلة بين الخديو والنديم فى أعقاب الأزمة الوزارية ولما أحس أتباع كرومر بصلة النديم بالقصر بدأت المغريات تلتف حوله فسعوا إليه يمنونه بالمنصب والجاه والراحة نظير مسالمته للاحتلال ، ولكن النديم عد طريق الكفاح أمانة فى

عنقه، ونتيجة لتطورات الأحداث قامت إنجلترا بزيادة أعداد قواتها فى مصر كما قام كرومر بمحاولات للتقرب من الشعب وذلك بإقامة الاحتفالات والتبسط معهم فى الحديث وإيهامهم بأن الخديو سيعود إلى دكتاتورية آبائه لو انفرد بالأمر، وأن الإنجليز لا يبغون سوى مصلحة الشعب.

أحست سلطات الاحتلال باهتزاز موقفها بعد الأزمة الوزارية التى ثبت منها أن الشعب يشد أزر الخديو، ويشاركه شعوره فى أن يثبت أن لمصر خديو جديرا بلقبه، كما أثبت التناقض الواضح بين أقوال وأفعال الاحتلال إزاء الخديو، إذ إن إنجلترا كانت تسوغ احتلال مصر بدعوى المحافظة على حقوقه، ثم ها هى تحرمه من سلطته فى اختيار وزرائه، ووقفت الصحف الوطنية بقيادة النديم تساند موقف الخديو وتهاجم الصحف المأجورة وعلى رأسها «المقطم»، وترد المقطم مطالبة بإغلاق «الأستاذ» وتتهم صاحبها بأنه يهيئ لثورة مثل الثورة العرابية، وتخرج الشائعات عن نفى النديم وهروبه من مصر، ويكذبها النديم على صفحات جريدته، ويواجه التحدى وتستمر المعركة الصحفية بينهما، فيكتب النديم مقالا تحت عنوان: " إنما يقبل النصيحة من وفق "اتهم فيه «المقطم» ببذر بذور الشقاق والفتنة وراءهم وأنهم سبب مصائب الشرق، ثم تبع ذلك بمقالة أخرى عنوانها "لم

اختلفت كلمتنا إذا اتحدت وجهتنا" حمل فيه على الصحف التى تديرها أقلام شرقية ومع ذلك لا تخدم سوى الاحتلال.

كما كشف عن أصحاب «المقطم» وتاريخ حياتهم فقال: "كيف يرجى الصدق والإخلاص ممن خانوا وطنهم وسلطانهم وأهلهم، وكانت بلادهم أولى بالخدمة، وأقرب الحوادث منا وجود أحد الأجراء خطيبا فى محفل من محافل بيروت.. يحرض فيه الناس على نبذ الطاعة السلطانية والانحياز للغير.

وترد «المقطم» على النديم بشن حملات عنيفة عليه لإيهام السلطات بخطورته كما طالبت بإغلاق مجلته وإبعاده عن مصر، وأيدتها فى ذلك التايمز واتهمت النديم بإثارة النعرة الدينية ضد أوروبا، واستمرت الحملات بين «الأستاذ» و«المقطم» حتى خشيت سلطات الاحتلال من آثارها.

ويمكن القول إن مقالات النديم على صفحات «الأستاذ» فيما بين أغسطس ١٨٩٢ ويونيو ١٨٩٣ كانت تحدد المعارضة الصحفية القومية ضد الاحتلال حيث هزت الشعب بلهجتها القوية الشبيهة بلهجة "العروة الوثقى".

(١٩)
مطالبة سلطات الاحتلال بنفى النديم وتخلى الخديو عنه

لقد أحس كرومر بخطورة النديم لمكانته بين الناس ، وقوة تأثير مقالاته بـ«الأستاذ» فرأى أهمية إسكات هذا القلم لأنه إذا استمر حدثت ثورة فى البلاد فطلب من رياض باشا رئيس النظار إرسال إنذار إلى جريدة «الأستاذ» بالإغلاق إذا لم تكف عن التحدث فى السياسة .

ولما كان النديم متيقنا من مساندة الخديو له لم يهتم بالإنذار بل اشتدت المعركة بينه وبين المقطم فكتب مقالا تحت عنوان : "بمن أقتدى إذا اختلفت الآراء؟ "طالب فيه مواطنيه بضرورة الاقتداء بالمخلصين للبلاد العاملين على رفعتها والإنصات إلى ما يقولون وهاجم أصحاب المقطم مما جعلهم يشددون حملتهم ويتهمونه

بأنه يحض على الثورة وإثارة روح التعصب الدينى ، وبث الشقاق بين عنصرى الأمة ، وحذروا ولاة الأمور من كتاباته التى تدعو إلى "مجزرة ثانية مثل مجزرة الإسكندرية التى كان هو أول المحرضين عليها" كما اتهموه بأنه يعد لثورة أخرى كالثورة العرابية ، ونصحوا الحكومة الإنجليزية بإسكاته ، وقد أيدت جريدة «التايمز» أقوالهم وشددت على اتهام النديم بإثارة التعصب الدينى .

لقد كان السلاح الذى توجهه إنجلترا وعملاؤها إلى صدور الوطنيين هو اتهامهم بالتعصب الدينى ، وقد رد النديم على الذين يتهمونه بالتعصب الدينى بمقال عنوانه : " هذا عندكم فما مقابله عندنا" فند فيه هذه الافتراءات بقوله : "كثيرا ما ترمينا جرائد إنجلترا بالتعصب الدينى تشويشا لأذهان أهلها ، وترويجا لأفكار سياستها التى تبعث المطامع ، ولو تأملنا حال المسلمين ، وقابلنا بين سكوتهم وعدم تعرضهم لدين غيرهم لرأينا أمرا يذهل العاقل ، ويحير الأفكار بهذه الدعوى الباطلة ، كما وضح بأن هذه الادعاءات قائمة على غير أساس لأن كل مسلم ممنوع من التعصب بقوله تعالى : " لا إكراه فى الدين" . وإذا قابل المخالفين له فى الدين هش وبش وقال : " لكم دينكم ولى دين» . ومع ذلك فقد أرسل رياض باشا إنذارا ثانيا إلى «الأستاذ» يطلب فيه

عدم التعرض للأمور السياسية، والالتزام بالأغراض الأدبية والعلمية.

ونتيجة لما أحدثته مقالات النديم بدأت رياح الثورة على الاحتلال تهب فى أحاديث الناس، وقد استغل أصحاب المقطم مخاوف سلطات الاحتلال من أن يكون وراء النديم تجمع فأوعزوا إلى كرومر بأن للنديم "أشياعا يأتمرون بأمره، ويسيرون تحت علمه كما ذكروه بأنه خطيب الثورة العرابية الذى آثار خواطر الناس وهيج أفكارهم وأنه لو ترك ستحدث ثورة أخرى، ولما كان كرومر يعتقد أن الحركة الوطنية فى مصر لم تخمد تماما وأنها ما زالت باقية وإن كان صوتها خافتا لدرجة كبيرة، فقد طلب من الخديو نفى النديم خارج البلاد خشية إثارته لروح التعصب الدينى، ولما علم أصحاب المقطم بالخبر نشروه فى صحيفتهم فرد النديم عليهم بأن قولهم مجرد شائعة كاذبة وافتراء. ولما ماطل الخديو فى إجابة طلب كرومر تشجع النديم وكتب مقالا تحت عنوان " صبر جميل" ذكر فيه بأنه من رجال الهيئة الوطنية المشمولين برعاية الحضرة الخديوة فقال: "إننا من رجال الهيئة الوطنية المشمولين برعاية الحضرة الخديوة وحماية الحكومة المصرية لا ننطق بكلمة ولا نتحرك حركة إلا وهو أعلم بها، كما كذب ما تردد عن إبعاده عن الوطن وإغلاق "الأستاذ"

وهاجم أصحاب المقطم وسماهم بالأجراء كما هاجم الإنجليز الذين يعتمدون عليهم، مما أثار ثائرة أصحاب المقطم وأدى إلى ازدياد تشديد حملتهم على النديم فاتهموه بإثارة الأفكار التى أدت إلى مذبحة الإسكندرية وبأنه يدعو إلى ثورة عرابية ثانية مما آثار كرومر عليه حتى أوعز إلى الداخلية بإصدار آخر إنذار لمجلة «الأستاذ» بالإغلاق إذا تعرضت للحديث عن السياسة، كما نشرت المقطم أن المعتمد البريطانى يصر على إغلاق مجلة "الأستاذ" ونفى صاحبها إذا خالف الإنذار. ومع أن النديم فوت عليهم الفرصة فخرجت جريدته فى عدديها الصادرين فى ٣٠ /٥، ٦/٦/١٨٩٣ خالية من الأحاديث السياسية فإن الأمور لم تستقر، حيث استمرت جريدة «التايمز» اللندنية تطالب بإسكات قلم النديم لخطورته، مما عجل بطلب كرومر بضرورة الإصرار على نفيه متخذا من طعنه فى مساوئ الاحتلال وانتقاداته المستمرة للإجراءات الإنجليزية أساسا لذلك فأذعن الخديو للأمر ولم يستطع أن يحمى النديم فكتب أمرا بنفيه، خشية أن يقبض عليه، بواسطة عساكر الاحتلال وخوفا من حصول ما يكدر الراحة العمومية". ودع النديم قراءه بمقال تحت عنوان " تحية وسلام " قال فيه إن هدفه من إنشاء مجلة «الأستاذ» كان تقديم النصح والإرشاد للشرقيين عموما والمصريين خصوصًا

ثم تحدث عن المؤامرات التى حيكت ضده، وضد الوطن بعد أن صارت "الأستاذ" فى مقدمة الجرائد المرشدة إلى طرق الإصلاح والنجاح، ولم يوضح أنه سينفى خارج مصر بل زعم أنه أصيب بضعف فى صحته، وأن الأطباء أشاروا عليه بتغيير الهواء خارج القطر المصرى، وشكر الصحف الوطنية التى ساندته فى مواقفه كما شكر الشعب الذى استيقظت وطنيته رغم كل المعوقات، وتحدث عن عزائم الرجال وأهمية تحديها للمصاعب والمحن فقال: "وما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب، والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من العظم والجلالة" وقد اتخذ النديم من "يافا" مقرا لنفيه للمرة الثانية، ورتبت له الحكومة المصرية معاشا شهريا قدره خمسة وعشرون جنيها ابتداءً من ١٥ يونيو ١٨٩٣ تصرف له ما دام مقيما خارج البلاد المصرية، وما دام لا يشتغل بشئ ولا يحرر شيئا لا سياسيا ولا أدبيا عنها، وأن يصرف إليه أيضا مبلغ أربعمائة جنيه مصرى لمساعدته على تسديد ديونه وعلى مصاريف السفر.

(٢٠)
دروس الوطنية التى أخذها مصطفى كامل من النديم

اختلف النديم عن زعماء الثورة العرابية فى أنه ثابر على الكفاح بعد الهزيمة ، حيث تحمل بعد عودته من منفاه عام ١٨٩٢ مهمة إيقاظ الشعور الوطنى واستنهاض الهمم وبث روح المقاومة بين فئات الشعب ضد الاحتلال . ولما كان الجيل الذى عاصر الثورة العرابية قد أثرت فيه روح الهزيمة ، وأضعف الاحتلال من معنوياته ، فقد وضع النديم أمله فى الجيل الجديد من الشباب وخصوصا طلبة الحقوق ، فجذب إليه منهم من وجد فيه مثلا لجهارة الرأى وفصاحة القول ، ومنهم مصطفى كامل الذى ما إن سمع بظهوره حتى خف للقائه وقدم نفسه إليه وكان حينئذاك طالبا فتتلمذ عليه ونشأ فى مدرسته واقتبس بعض أساليبه "واطلع

على دخائل الحوادث الماضية" . فعرف منه أسباب حوادث الثورة العرابية على حقيقتها ومواقع الخطأ التى تورط فيها العرابيون، كما استطاع بفضل صحبة أستاذه الثائر التعرف على حقيقة التيار السياسى فى البلاد وكيف شوه رجال الاحتلال مبادئ العرابيين وخططهم، كما تعلم منه القواعد التى إذا اتبعها يكون وطنيا ناجحا وهى :

١- ألا يستعمل الجيش مطلقا فى حركته بل يجعل جل اعتماده على الرأى العام الذى يمكن تنميته بالتربية الوطنية والأخلاقية للشعب حتى يتكون منه قوة تكون ركيزة للحركة الوطنية .

٢- ألا يعادى الخديو حتى لا تنقسم الأمة كما حدث بين العرابيين والخديو توفيق ويضطر الخديو لكى ينقذ عرشه إلى الانضمام إلى القوى الأجنبية ضد الوطنيين فتفسد حركة الدعوة إلى الاستقلال ويستفيد الإنجليز من ذلك ويحققوا أغراضهم الاستعمارية باستمرار احتلالهم للبلاد .

٣- ألا ييأس مطلقا من طريق الكفاح الشاق والطويل مهما طالت المقاومة لأن اليأس طريق الهزيمة الأكيد .

٤- ألا يطمئن إلى الإنجليز بل يحذر من خداعهم ودسائسهم التى كان لها دخل كبير فى إخفاق الثورة ووقوع الاحتلال .

ونحن نلاحظ من تتبع خط مصطفى كامل الوطنى أنه سار على هدى تعليمات أستاذه، فبالنسبة إلى البند الاول الذى تعلمه منه وهو عدم الاعتماد على الجيش بل اللجوء إلى قوة الرأى العام نرى أن مصطفى كامل رفض أن يكون للجيش أى دخل فى حركته السياسية بل كان يدعو إلى الكفاح السلمى.

لقد حاول مصطفى كامل تكوين رأى عام بين أبناء وطنه يكون ركيزة له فى مقاومة الاحتلال بدلا من الاعتماد على الجيش، وكان سبيله إلى ذلك:

١- إنشاء المدارس الأهلية لتربية النشء التربية الوطنية الصحيحة لأن الجهل هو العدو الأول للتقدم واستقلال البلاد، وأنه لا سبيل لأمة من الأمم أن تنال المجد والعز والرفاهية بغير تربية أبنائها وتهذيب نفوسهم وإرشادهم إلى واجباتهم نحو الأمة والوطن والدين.

٢- النضال بالقلم تارة واللسان تارة أخرى حتى تستعيد الجماهير ثقتها فى نفسها.

٣- ضرورة الاتحاد بين القوى كافة فى مصر للمناداة بالجلاء والاستقلال.

وبالنسبة إلى البند الثانى وهو التعاون مع الخديو فقد سار مصطفى كامل على نصائح أستاذه النديم بالبعد عن الشقاق،

وكان من أولى ثمرات ارتباط مصطفى كامل بالخديو أن استنبط فكرة الاحتفال بعيد جلوس الخديو "وحرض رفاقه التلاميذ على ذلك فاحتلفوا به فى الأزبكية فى ٨ يناير ١٨٩٣ .

كما وقف مصطفى كامل بجانب الخديو فى أثناء الأزمة الوزارية ودافع عن حقه فى تعيين وزرائه وتمسكه بحقوقه الشرعية فقال : " لقد ادعت إنجلترا قبل الاحتلال الإنجليزى وبعده أن جل أمانيها تقوية السلطة الخديوة ودك أركانها . . وقد ظهرت أعمال الإنجليز فى مصر ونياتهم ظهور الشمس فى رابعة النهار فى عهد سمو الخديو الحالى (عباس حلمى باشا الثانى) حيث جاء مطالبا بحقوقه الشرعية متمسكا بحقوق أمته فعارضته إنجلترا ثم نادى أبناء الوطن كافة بالوقوف بجانب الخديو ضد الأطماع الأجنبية فقال إن "مصالح الأمة المصرية صارت اليوم متفقة مع مصالح الخديو ، وصارت آمال الأمة وأمانيها متفقة مع آمال سمو الخديو وأمانيه فيستحيل على أبناء مصر أن يبتعدوا عن سمو العزيز (عباس حلمى باشا) لحظة واحدة» .

هكذا وقف مصطفى كامل بجانب الخديو وشجعه على ذلك مواقف الخديو تجاه الحركة الوطنية فى ذلك الوقت .

وبالنسبة إلى البند الثالث وهو عدم اليأس والاستمرار فى طريق الكفاح وضرورة إعادة الثقة إلى الشعب الذى أثرت

الهزيمة فى نفسه وتسرب على أثرها اليأس فى نفوس الكثيرين، فقد دعا مصطفى كامل إلى محاربة اليأس وإلى الثقة فى الأمة وسار على هدى حكمة أستاذه: "إذا ألقيت السلاح تعبا فأنت المقتول".

لقد دعا مصطفى كامل إلى عدم اليأس وإلى ضرورة اعتماد الأمة على جهود أبنائها والثقة فى أنفسهم وكانت صرخته "لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة"، خير مثال على دعوته، وكانت حملته ضد الاحتلال تستخدم عدة وسائل منها أن لا يأس مطلقا".

لقد رسم مصطفى كامل لنفسه خطة المقاومة المستمرة للاحتلال وهى مقاومة لا ضعف فيها ولا هوادة ولا تراجع، وظل ثابتا فى جهاده.

وأما عن البند الرابع وهو الحذر من ألاعيب الإنجليز وخداعهم فلعل أدق وصف لذلك ما ذكره الأستاذ محمد شفيق غربال بقوله: "كانت حملة مصطفى كامل تستخدم ثلاث وسائل: ١- لا تصدقوا أيها المصريون كلام الإنجليز أو كلام مأجوريهم بأن مركزهم فى مصر لا يتزعزع ولن يتزعزع.

٢- لا تثقوا مطلقا بوعودهم ولا تركنوا إلى محاولاتهم تبسيط مركز البلاد الدولى، بل تذرعوا بتلك العناصر الدولية

والعثمانية التى يكرهها الإنجليز، ويكفى كرههم لها تمسككم بها.

٣- لا تصدقوا أن الاحتلال يمكن أن يبطن خيرا لكم أو لبعضكم فهو يفعل ذلك ليفرق كلمتكم ويجعل من بعضكم أعداء للبعض الآخر.

لقد تعلم مصطفى كامل من أستاذه دهاء السياسة الإنجليزية ومهارتها وأن الإنجليز لا يهمهم غير مصالحهم، وقد عبر عن ذلك بقوله : "الإنجليز يعملون لخدمة إنجلترا بالذات، فهم يريدون أن تكون سياسة بلادهم سياسة لين ومهارة بدلا من أن تكون سياسة شدة وصلابة".

هكذا كانت أخطاء الثورة العرابية التى وعاها مصطفى كامل من النديم درسا له جنبه مواضع الإخفاق فى جهاده لأن الزعامة الحقة هى التى تستفيد من تجارب الماضى وتعتبر بمصائب الوطن فتقيه مواطن الزلل وتسلك بالأمة سبيل الحكمة والرشاد. وهكذا كان النديم أستاذا مباشرا لمصطفى كامل فى ميدان السياسة المصرية حيث كانت نصائحه وتوجيهاته خير هاد له حتى أصبح يقدر لكل خطوة موضعها وليس من شك فى أن النديم غرس فى مصطفى كامل آراءه وكان همزة الوصل بين جيل الثورة العرابية والجيل الجديد الذى تسلم الراية بعد إخفاقها.

أثر النديم فى تكوين مصطفى كامل الصحافى :

لقد شرح النديم لمصطفى كامل وزملائه أهمية الصحافة ودورها فى تنوير الرأى العام وشجعهم على الكتابة فيها ، ولما أنشأ مصطفى كامل مجلة "المدرسة" رحب بها ونوه عنها فى مجلة «الأستاذ» .

لقد كانت جريدة "الأستاذ" التى يحررها النديم فى ذلك الوقت هى الأستاذ لمصطفى كامل حيث تعلم منها الاتجاه والنغمة وإن اختلفا من حيث الثقافة والأسلوب بحكم الزمن والأحداث والظروف ، وفيما يلى يتضح ذلك :

كتب مصطفى كامل فى العدد الأول من مجلة المدرسة أنه أنشأ هذه الجريدة "لتكون مركزا لجمع درر فرائد الأستاذ ، وقوله هذا يدل على مدى اعتماده على مجلة النديم " الأستاذ" من حيث الاتجاه والتقليد ويثبت ذلك كتاباته فى أعداد مجلته .

أثر النديم فى تكوين مصطفى كامل الخطابى :

لقد أوصى النديم الناشئة من الشبان بأن يتقنوا فن الخطابة وتولى بنفسه تلقينهم وتدريبهم عليها حتى صار بعضهم من قادة الفكر والإصلاح أمثال مصطفى كامل وأحمد فتحى زغلول ، وقد اختص مصطفى كامل بالعناية حيث وجد فيه الاستعداد وتبينت له قدرته الخطابية وطالعته من مواهبه أمارات الزعامة

فشحن عواطفه بما فى نفسه من أفكار مكبوته سنين طوالا ، وقد ظهر أثر ذلك واضحا فى خطب مصطفى كامل وأسلوبه حيث اقتبس من النديم بعض أساليبه فى الخطابة وكان ممن يرددون نغماته ، ومن يدقق فى الخطب التى ألقاها مصطفى كامل على أبناء وطنه يجدها تخضع لشبه منهج معين قوامه من البداية إثارة المشاعر الوطنية وهو نفس الأسلوب نفسه الذى كان يتبعه النديم حيث كان أسلوب كل منهما مؤثرا بالنسبة إلى السامع على المستويات كافة ، وكما كان النديم مثالا لمن جاء بعده من الخطباء والمشاهير فى تاريخ مصر الحديث ، حيث كان ذا لسان فصيح وبيان واضح وصوت جهورى وعبارات فصيحة وحجج قوية وجرأة فائقة فى مواجهة الجموع ، كان كذلك مصطفى كامل حتى إن "على مبارك" لقبه بامرئ القيس لإعجابه بفصاحته وشجاعته وقوة عارضته .

وكما ظهرت خطورة خطب النديم خلال أحداث الثورة العرابية وخلال المعارك الحربية بين المصريين والقوات الإنجليزية فقد برزت أيضا خطب مصطفى كامل فى حركة الإحياء وبعث الوطنية فكان له الفضل فى استعادة الثقة إلى النفوس التى أقفرت وزرع الأمل فى القلوب التى كانت قد استسلمت لليأس .

وهكذا كان النديم صاحب أول مدرسة خطابية فى التاريخ

المصرى الحديث وكان فى مقدمة من تخرج فيها مصطفى كامل الذى تأثر بأستاذه لا فى المبادئ فحسب بل فى الأسلوب أيضا ثم حمل الرسالة كاملة دون يأس أو كلل .

أثر النديم فى أنشطة مصطفى كامل الوطنية الأخرى :

لم يقتصر أثر النديم فى نشأة مصطفى كامل على الصحافة والخطابة فحسب بل كان مصطفى كامل متأثرا ومقلدا لأستاذه فى كثير من الأنشطة الأخرى ، فكما بدأ النديم نشاطه السياسى بالعمل السرى فى جمعية " مصر الفتاة" السرية بدأ مصطفى كامل نشاطه السياسى بالانضمام إلى جمعية "إحياء الوطن" السرية التى كانت تتكون من مصريين وفرنسيين ويتركز نشاطهم حول فكرة الاستعانة بدولة قوية تناوئ الاحتلال ، وكما اهتم النديم بإنشاء الجمعيات الخيرية والأدبية والعلمية اهتم ايضا مصطفى كامل بذلك ، حيث أسس فى مقتبل شبابه جمعية أدبية وطنية سماها "جمعية الصليبة الأدبية" ، كما عمل فى جمعيات "الاعتدال" و"الهدى" و"العلم المصرى" ، وهذه الجمعيات هى التى أسسها جماعة من صفوة فضلاء المصريين أدبا وعلما وجاها ومكانة ، وكما كان للنديم فى هذه الجمعيات جولات فى الخطابة والمناظرة كان لمصطفى كامل أيضا جولات صادقات عند المناظرة والجدل والمناقشات .

وكما اهتم النديم بالمسرح وألف مسرحيتى "الوطن وطالع

التوفيق" و"النعمان" وكتب عن أهمية التمثيل اهتم أيضا مصطفى كامل بالمسرح حتى أن النديم نوه بمجهوده فى تكوين جمعية من الشبيبة المصرية المثقفة لترقية المسرح المصرى وهى "جمعية الفتوح الخيرية"، كما نوه بالإنتاج الفنى لهذه الجمعية بتشخيص رواية "الملكة بلقيس" وإلى جانب ذلك فقد ألف مصطفى كامل رواية بعنوان " فتح الأندلس" وكتب عن أهمية التمثيل بقوله : " التمثيل فى كل أمة هو من أهم دواعى ارتقائها ومن أكبر أسباب تهذيبها" .

وكما اهتم النديم بالتعليم الأهلى وأسس مدرسة لتعليم الأطفال بالجمعية الخيرية الإسلامية اهتم أيضا مصطفى كامل بذلك فنادى بنشر التعليم الأهلى فى البلاد وكان من أكبر أمانيه أن يكون له مدرسة ويتضح ذلك من قوله : " إن من أكبر أمانى أن يكون لى مدرسة أعلم فيها الناشئين، وقد تحقق له ما أراد حين ساعده بعض أثرياء الوطنيين على ذلك وتأسست مدرسة بباب الشعرية أطلق عليها اسم " مدرسة مصطفى كامل" كان له أمر إدراتها والإشراف عليها .

وكما نادى النديم بالحياة الديمقراطية والدستور نادى بذلك أيضا مصطفى كامل حيث بدأ يروج للأفكار الدستورية فى مجلة المدرسة ويشرح أنظمة الحكم، وتطرق حديثه إلى الحكومة الدستورية وكيف أن الحكم فيها موزع بين ثلاث سلطات لا تطغى إحداها على

الأخرى ، ثم نجده يطالب فى مقال له باللواء بتنفيذ وعد اللورد دفرين بتأسيس مجلس نيابى كما أخذ يدعو إلى إقامة مجلس نيابى ليكون أداة لإصلاح عيوب الحكم فكتب مقالا آخر باللواء بين فيه فساد الإدارة الحكومية وطالب بمجلس نيابى بقوله : " وعندى أن هذه الأدوار المختلفة والأدواء المتنوعة دالة كلها على شدة حاجة هذه البلاد إلى مجلس نيابى تكون له السلطة التشريعية الكبرى ، فلا يسن قانون بغير إرادته ولا تحور مادة إلا بمشيئته ولا يزعزعه نظام بغير أمره ، ولا تعلو كلمة على كلمته» .

لقد كان طلب مصطفى كامل بالجلاء مقترنا بطلب الدستور ، حتى أن طلبة المدارس كانوا يقومون من وقت إلى آخر بمظاهرات ينادون فيها الخديو بقولهم : "الدستور يا أفندينا" .

وكما دعا النديم إلى أهمية الوحدة الوطنية بين عناصر الأمة فقد نادى بذلك أيضا مصطفى كامل فقال فى إحدى خطبه : " مضى على مصر ثلاثة عشر قرنا نحن والأقباط فيها إخوة لا نتكلم بشأن الدين إلا إذا كنا فى المسجد أو كانوا فى الكنيسة" . كما ذكر أن الديانة الإسلامية تعلم معتنقيها احترام كل المذاهب وجميع الديانات وأن الاعتدال والتسامح من قواعدها الأساسية ، ونادى بالوحدة الوطنية بقوله : " أما واجبنا الوطنى فهو العمل باتحاد تام بين المسلمين والأقباط وغيرهم ممن صارت

مصر وطنا لهم، وقد برهن على ذلك بأن ضم بعض الأقباط إلى الحزب الوطنى بل وكان أحدهم - وهو ويصا واصف - أحد أعضاء اللجنة الإدارية للحزب الوطنى كما كان مرقص حنا من خيرة أصدقائه، وكما انتقد النديم مواقف السوريين تجاه القضية المصرية انتقدهم أيضا مصطفى كامل لاعتقاده أنهم يخالفون مصلحة مصر، وكما أن النديم لم يتعرض للتهمة التى تعرض لها الكثير من الزعماء المصريين وهى تهمة ممالأة الاحتلال فقد نجا مصطفى كامل أيضا من هذه التهمة ولم يستطع أحد من أعدائه أن يرميه بها.

وكما هاجم أذناب الاحتلال والصحف الموالية له النديم وجهاده الوطنى هاجموا مصطفى كامل، فعندما قابل مصطفى كامل الميرالى بارنج شقيق كرومر وتناقش معه فى المسألة المصرية هاجم أصحاب المقطم ذلك وانتقدوا مصطفى كامل انتقادا شديدا واعتبروا حديثه خرافة.

إن أفضل ما فى الرجال هو الثبات على المبدأ مهما كانت الصعاب، وقد ثبت النديم على مبدئه وكان وفيا للثورة العرابية حتى فى أحرج اللحظات وخصوصا بعد هزيمتها وكذلك كان مصطفى كامل ثابتا على المبدأ رغم تطورات الأحداث فى غير صالح الحركة الوطنية وخصوصا بين حادثتى فاشودة والاتفاق الودى.

(٢١)
أوجه الخلاف بين مصطفى كامل وأستاذه النديم

١ - رغم أن مصطفى كامل تلميذ عبد الله النديم نادى بأن تكون مصر للمصريين وفضل الوطنية المصرية عما عداها فقد دعا إلى تبعية مصر لتركيا وضرورة التمسك بالرابطة العثمانية ؛ بقوله : " ويجب على المصريين أن يتمسكوا أشد التمسك بالرابطة الأكيدة التى تربطهم بالدولة العثمانية ، بل وصل به الأمر أن طلب من السلطان إرسال جيوشه إلى مصر لإخراج الإنجليز منها واحتلالها باعتبارها ولاية عثمانية ، كما أعلن فى خطبة له بباريس بمناسبة عيد جلوس السلطان فى ٣١ من أغسطس ١٨٩٥ أن الراية العثمانية هى الراية الوحيدة التى يجب أن نجتمع حولها .

ومع أنه من الصعب أن ينكر أحد أن مصطفى كامل كان لديه

الحماسة الدينية تجاه الدولة العثمانية ، فإننا نرى أن مصطفى كامل قد رغب فى محاسنة الدولة العثمانية حتى يطمئن إلى أنها لن تنضم إلى إنجلترا فى سياستها الاستعمارية ضد أمانى المصريين ، وحتى يثبت بطلان الاحتلال الإنجليزى ، وعدم شرعيته لذلك فإنه عمل فى خطين متوازيين هما الوطنية المصرية والجامعة الإسلامية مع تغليب التيار الثانى بشرط التمسك باستقلال مصر الداخلى كما قررته معاهدة لندن ١٨٤٠ وضمنته الفرمانات السلطانية .

لقد كان الفرق شاسعا بين سياسة النديم وسياسة مصطفى كامل تجاه الدولة العثمانية ، فالنديم فضل الولاء للوطنية عن الارتباط بجامعة الدين وعندما تعارضت مصلحة مصر مع مصلحة الدولة العثمانية وقف النديم بجانب مصر بل وهاجم سياسة الدولة العثمانية تجاه القضية المصرية ورفض أن تتنازل مصر عن الامتيازات التى نالتها باستقلالها فى شئونها الداخلية ، بينما نجد مصطفى كامل يطلب من السلطان إرسال جيوش عثمانية لاحتلال مصر وإخراج الإنجليز منها ، أى أنه لا يمانع فى استبدال احتلال عثمانى باحتلال بريطانى ، ويفند مصطفى كامل ذلك بقوله : " إننا "نتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون" .

لقد دافع مصطفى كامل عن فكرة الجامعة الإسلامية وضرورة وحدة المسلمين فى ظل الخلافة العثمانية فى حين كان النديم ينادى بالوحدة الشرقية التى تضم الأديان التى يعتنقها الشرقيون كافة .

٢- لقد اعتمد النديم فى نضاله الوطنى على الطبقات الشعبية وخصوصا الفلاحين حيث إنهم غالبية الشعب المصرى فى حين أن دعوة مصطفى كامل اقتصرت على المثقفين فى المدن وساعد على ذلك أن دعوته لتوثيق روابط مصر مع تركيا جعلت الفلاحين الذين ذاقوا الأمرين من العسف التركى يتجنبون دخول حزبه ، ولن يتغير ذلك الوضع إلا بعد حادثة دنشواى التى كانت فرصة لتوصيل صوت مصطفى كامل إلى آذان الفلاحين فهتف الفلاح وابنه وامراته باسمه وراء المحراث وفى طريق القرية وعلى سطح الدار .

٣- أن مصطفى كامل استطاع عرض قضية بلاده على الرأى العام العالمى واكتساب الأنصار لها فى الخارج ؛ وذلك لمقدرته على التحدث بالفرنسية ، ولأن ظروف العمل الوطنى كانت تحتم عليه ذلك ، كما أنشأ جريدتين أفرنكيتين إحداهما بالفرنسية وهى ليتندار إجبسيان L'Etendard Egyptien والأخرى بالإنجليزية وهى ذى إجبشين إستاندارد The Egyptian Estandard بينما

لم يتمكن النديم من القيام بذلك؛ أولا لأنه لا يجيد التحدث باللغات الأجنبية وثانيا لأن ظروف الكفاح الوطنى حتمت عليه الوجود بمصر سواء فى مدة الثورة العرابية أو ما بعدها.

٤ - أن مصطفى كامل كان عفيف القلم واللسان يطالب بحقوق بلاده بأسلوب بعيد عن السباب والشتائم وقد عبر عن ذلك بقوله: "إننا نعلم أن الصحافى إذا جعل الشتائم فى مواد جريدته أنزل نفسه بنفسه من مقام الواعظ الصادق والناصح المرشد والقائد لحركة الأفكار والميول فى الأمة إلى وظيفة الصعلوك الحقير الذى ينبح ليله ونهاره كما تنبح الكلاب»، بينما كان للنديم مواقف غير ذلك، وخصوصا فى حقبة الثورة العرابية.

لقد عاش النديم معتل الصحة كثير الأمراض وكذلك كان مصطفى كامل ومع ذلك فلم يعرف أى منهما طعما للراحة ولم يعط أى منهما لبدنه حقه بل كانا يجدان اللذة فى العمل بيد أن تكوين كل منهما الضعيف لم يتناسب مع روحيهما القويتين اللتين يصعب ترويضهما على الاستكانة أو المهادنة، فواصلا بذل الجهود فى سبيل مصر تارة فى مرح وتارات أخرى فى ترح حتى استنفدا حيويتهما.

لقد مات النديم بعد أن أنشب الدرن الرئوى أظفاره فى جسده

وذلك ما حدث مع مصطفى كامل حيث يذكر محمد فريد أنه لما عاد مصطفى كامل من أوربا " ذهب لمقابلته بالإسكندرية على الباخرة وكان الدكتور رمضان بانتظاره باللوكاندة ، ولما رآه مصفرا أخضر اللون قال لي همسا إن حالته الصحية غير مرضية ولا بد أن يكون مصابا بالسل" .

لقد كان لاتصال مصطفى كامل بالنديم أكثر من معنى " وكان أجل هذه المعاني وأسماها اتصال الثورات وانتقال الشعلة من يد إلى يد ومن جيل إلى جيل ، لا تخبو ولا تسقط ، فقد كان مصطفى كامل تجسيدا لروح الثورة الحقيقية في حركة عرابي ، فالتقطها من أعظم ثوارها عبد الله النديم .

(٢٢)
النديم والإصلاح الاجتماعى

لقد سبقت دعوة النديم للإصلاح الاجتماعى انشغاله بأحداث البلاد السياسية ثم مزج بينهما وسارا جنبًا إلى جنب حيث انشغل بما أصاب قومه من جهل وانحلال وانهماك فى الرذائل والموبقات وحاول أن ينبههم إلى مضارها ويزيل الخرافات والجهل المطبق عليهم معتقدًا أن الوطن لا يمكنه التخلص من السيادة الأجنبية ما دام الجهل معششًا فى عقول أبنائه والخرافات مسيطرة على أفكارهم مؤثرة على طموحهم والرذائل والموبقات محطمة لمثلهم وعقائدهم فكتب المقالات المطولة والقصص الرمزية والمحاورات التى كتبت بالعامية فى صحفة ليفهمها غالبية الشعب صور فيها الأحوال الاجتماعية

والسياسية والثقافية التى تعيشها البلاد وما فيها من عيوب، كما كانت له الخطب الإصلاحية على منابر المساجد وفى طرق المدن والقرى والنجوع حيث قام بحملاته المكثفة على البدع وأعمال الشعوذة والعادات التي لا تدخل أى بلد إلا وتُخرج منه التمدن والعلوم مطالبًا أبناء وطنه بالسير خلف العلوم بدلاً من السير وراء الخرافات .

وفيما يلى نعرض لذلك .

انتابت المجتمع المصرى آفات عديدة بعضها تراكم بمرور الزمان والآخر جديد على المجتمع المصرى، ولما كان لهذه الآفات أكبر الأثر فى تأخر الناس وتدهور أحوالهم وعدم مسايرتهم للتقدم فقد تحدث النديم عنها مبينًا مضارها فذكر منها أساليب مشايخ الطرق فى الموالد والشعوذة والمشعوذين والخرافات والاحتيال والكذب والبدع التى تسمم بها النساء العجائز أفكار الشابات مثل الندب والصراخ خلف الميت والجلوس على المقابر والزار وبدعة شحذ الشحاذ ثم تحدث عن خطورة الاندفاع فى تقليد الأوربيين وانتشار الخمر والقمار والدعارة، وفيما يلى نعرض لما ذكره النديم عن كل آفة من هذه الآفات :

١ - انتقد النديم الأساليب التى يتبعها مشايخ الطرق فى الموالد مما يسىء إلى الدين وهو منها براء، وينسبون إلى الأولياء الكثير

من الكذب والبهتان ويعجب لما يدعيه هؤلاء من علم بما أنزله الله وأن فى استطاعتهم دفع المصائب، وجلب النوائب بقدرتهم ويرميهم بالكفر والفسوق موضحًا أن وظيفة رجال الدين ما هى إلا بذل النصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتعليم مكارم الأخلاق مؤكدًا أن الطريق الصحيح هو التمسك بالقرآن والسنة . كما ندد بعادات أهل الطرق فى الموالد التى هى أبعد ما تكون عن الدين مثل الطبل والزمر والرقص وما يتخلل ذلك من الأمور التى تخالف الآداب الشرعية فقال : " هلا اتخذ الناس طريقة للموالد والمجالس غير هذه الطريقة الشنيعة، وهلا رجع هؤلاء الجهلة عن بدعهم. ولما كان نقد النديم لهؤلاء بقصد الإصلاح فقد أوضح لهم الطريق الذى يجب أن يتبعوه من أجل إظهار الدين بصورته الحقيقية.

كما ناشد أولى الأمر بإصلاح الطرق وتنقيتها من البدع والأهواء حتى تكون من عوامل تأليف القلوب وتوحيد الكلمة .

ومما سبق يتضح أن النديم استهدف من نقده لأساليب مشايخ الطرق أن يسلكوا النهج القويم ويسيروا على ما تأمر به الشريعة الإسلامية ويبتعدوا عما يخالف القرآن والسنة، كما استهدف أيضًا تقدم الشعب بتوضيح الأضرار المترتبة على هذه العادات

وضرورة تجنبها حتى تسير البلاد نحو التقدم .

٢- عن الشعوذة والمشعوذين دعا النديم الناس إلى الحذر من هؤلاء والانطلاق فى أثر الدول المتقدمة، ومعرفة أساليب تفكير شعوبها وحياتهم، وطالب المشتغلين بالشعوذة بالكف عن تضليل الناس والبحث عن عمل آخر مثل الصناعة حتى يفيدوا بها أنفسهم ووطنهم، وحذرهم من أنه سيكشف أمرهم للناس بقوله : "مهلاً أيها المشعوذ فقد جاءك التنكيت والتبكيت يظهر مخباتك وما أنت عليه من الإضلال والإفك، فما أضرنا إلا شعوذتك، فلو تعلمت صنعة غير هذه لكانت أشرف لك، ألم تدرك أن الصناعة عليها إحياء الوطن وعمار البلاد" .

كما حذر الناس من الالتجاء إلى هؤلاء المشعوذين فى حل مشكلاتهم أو الاستماع لأقوالهم لأنهم يضلون عقولهم بأفعال قبيحة ويسلبون نقودهم وضرب مثلاً على ذلك فقال إن رجلاً مقيمًا فى ميت غمر "حفر بركة وأشاع أن ماءها يشفى من كل داء فهرع إليه الناس من كل بلد حتى ضاقت ميت غمر بالوفود وكان يعطى الإبريق بعشرة قروش، ويأخذ الخادم عشرة قروش وعشرة قروش أخرى ثمن البن، ونذر الشيخ عشرة قروش يظهر التعفف، ويقول إنه يعالج الناس ابتغاء مرضاة الله! فهل بمثل هذه الجهالة نضارع الأمم المتمدنة؟" . كما ضرب مثلاً آخر بما

حدث فى محطة سكة حديد دسوق حينما أشيع أن بالقطار امرأة تدعى الولاية، فازدحم الناس عليها بعضهم يقبلون القطار الذى تركبه، والبعض الآخر يقبل يدها فتقول لهم ما يردده مدعو الولاية: "مستورة . . سالكة . . ؟ أشيا معدن . . قدامك خضرة ووراك خضرة . . الله يحنن عليك . . ارمى حمولك على المتولى . . ربنا يجازى أولاد الحرام".

لقد هاجم النديم هؤلاء الذين يتخذون من الدين ستاراً لنشر الجهل والمعتقدات الفاسدة - مستغلين سذاجة بعض الناس - بأن لهم سلطانًا فعليًا خارقًا وأنهم الواسطة بين الإنسان وخالقه وأن لهم من الخوارق المعجزة والصفات المذهلة ما يجعل طلباتهم مجابة، مبينًا فساد أقوالهم وأن الدين منها براء . وعن مدعى الطب الذين يعالجون المرض بالتمائم والتعاويذ حذر النديم مواطنيه من هؤلاء حفاظًا على أرواح أبنائهم وضرب لهم مثلا على سوء أفعالهم فقال : " استدعى بعض شبابنا دجالاً من ميت غمر ليداوى له ولداً هو ثمرة فؤاده وقرة عينه، فلما أقبل ذلك الدجال أخذ يعالج الولد تارة بكتابة التمائم وأخرى بالتراكيب القتالة (ويسميها العقاقير إيهامًا بأنه طبيب)، فلم يلبث الولد أيامًا قلائل حتى التحق بساكن القبور. لقد ناشد النديم أولى الأمر بمحاربة الأباطيل والخزعبلات التى أخرت البلاد "وقطع

دابر مدعى الطب وإبعاد من تعثر عليه من المشعوذين المتلفين للعقول والأجسام" .

وفى مقال للنديم عما يسببه هؤلاء الدجالون المشعوذون من أخطار على المجتمع ذكر أنه بعد دعوته إلى إنشاء المدارس فى أثناء تجواله بزفتى وميت غمر خرج من هؤلاء رجل يمر فى الطرق والجامع يقول : "المدارس من محدثات الأمور وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار" . ثم أخذ يخوف الناس من المدارس بقوله إنها تزيغ العقائد وتفسد الأخلاق" فتبعه خلق كثير من أوباش زفتى ورعاعها" .

وقد ناشد النديم هؤلاء الناس بالكف عن الخرافات بقوله : " كفاكم أنكم تتبعتم الخرافات حتى فسدت أخلاقكم وتكدرت أفكاركم وصرتم لا تصلحون لإدارة أموركم إلا بعد طهارة أخلاقكم التى أفسدها التخريف .

٣- وعن الاحتيال والكذب والتخريف وتخريب عقول الناس وإفساد أخلاقهم وتزوير أدبهم الشعبى الأصيل ومحتواه ، هاجم النديم مروجى هذه الآفات فكتب تحت عنوان تخريفة "الجنون فنون" مقالاً قال فيه إن أحد المحتالين جلس على قهوة وراح يقرأ تخاريف سماها قصة عنترة فاجتمع إليه عدد من الرعاع والهمج فلما رآهم منصتين إليه ذكر عبارات نسبها إلى

عنترة، وظل يتفنن فى الكذب حتى الفجر وأخيراً قال وبينما هم فى قتال ونزال وقد انكشف الغبار عن أسر عنترة وسنخلصه فى الليلة المقبلة. فقال له أحد المجانين لا بد أن تخلصه الآن وخذ عشرة جنيهات فأبى المحتال وسكت عن الكلام فشتمه المجنون، وعلت أصواتهما بالقبائح وآل الأمر إلى الضرب والإهانة ثم ذهب المجنون وقد تذكر أن عنده قصة عنترة ولكنه أمى لا يقرأ فقصد بيت ولده وأيقظه من النوم وهو يبكى وطلب من ابنه أن يحضر الكتاب وأن يخلص عنترة من الأسر وإلا قتل نفسه ولما حاول الابن إقناع أبيه بأن هذه حكاية مكذوبة وقصة كلها تخريف وما عنترة إلا عبد أسود أخذ شهرة بما صنعه من قتل بعض الناس بلا حق- قام الرجل وضرب ابنه بعصاه حتى سال دمه، وطرده من بيته انتقاماً منه بأنه شتم عنترة فخرج الابن يسب الجهل وأهله وقال: "لا شك أن الجنون فنون".

٤- وكما حذر النديم الرجال والأولاد من البدع ومفاسدها فقد حذر الشابات من النساء بالابتعاد عن الخرافات التى يسمم بها العجائز أفكارهن من حيث الندب والصراخ خلف الميت، وذكرهن بأن ذلك مخالف للشرع والدين فقال: "لو علمن علم اليقين أن الولولة والندب خلف الميت لا يجوزان شرعًا لما حصل منهن ذلك ولما خرجن خلف الميت صارخات متهتكات صابغات

وجوههن وأيديهن بالنيلة أو الطين بل كن يمتثلن لأمر الدين " .
كما هاجم جلوس النساء على المقابر وتجمعهن كل يوم خميس في الأعياد والمواسم للذهاب إليها واتخاذ ذلك فرصة للتزين والتبرج .

وانتقد النديم " الزار " الذى تقوم به بعض النساء بحجة أن الشياطين يركبونهن متخذين هيئة سلطان أو ملك ، وكل من أصيبت منهن بمرض عصبى أو فتور جسمانى يوصف لها أن تحضر " القودية " لتبخرها ببخور مخصوص " وتستنطق الشيخ الذى حل فى زعمهن على جسدها وإذا يئست من شفائها تشير عليها بأن تستعد للزار وأن تجهز ما يلزم له من مأكولات ومشروبات والحلى والحلل كالثياب والأقراط والأساور والجلاجل " وقد ضرب النديم مثلاً على هذه البدعة منددًا بها فقال : حدثنى بعض من أثق به بتخريفة جرت بمنزله فقال : " بينما كان بمنزلى فى أحد الأيام بعض النساء وإذا بجارية سوداء دخلت عليهن ومعها امرأتان فقامت النساء إجلالاً لها وأجلسنها فى صدر مجلسهن ، وبعد تناول الطعام بقليل بدأت المرأتان تغنيان وتطبلان ، فأخذت الجارية فى الانتفاض ، ثم قامت من وسط المجلس وصاحت بصوت مزعج : " السلام عليكم " فأجابها كل من بالمجلس(وعليكم السلام سيدنا الشيخ) ثم

صارت كل واحدة تحييه بتحية غير تحية الأخرى ، وقد حدد الشيخ طلباته " بإحضار ديك وفرخة سوداء من غير إشارة " .

وقد ندد النديم بما سمعه واعتبره بدعة قبيحة ميسئة إلى المجتمع وإلى سمعة أفراده وطالب بمدرسة لتهذيب البنات حتى لا يسلكن طريق الأمهات ، كما انتقد النديم بدعة " شحذ الشحاذ " التى تفعلها بعض النساء يوم عاشوراء حيث يخرجن فى هذا اليوم وكل منهن تحمل طفلاً صغيراً وقد بذلن عفافهن وأبرزن نهودهن حتى إذا ما التقين بفتى أو برجل قابلنه بالضحك والقهقهة قائلات " شحذ الشحاذ " ليعطيهن درهمًا فيأخذنه منه على زعم منهن أن هذا الدرهم يمد أجل الطفل إلى أمد مديد ، ويمنع عنه الموت . وقد اعتبر النديم هذا العمل علة من أكبر العلل التى أصابت المجتمع ، وحذر من أنه لا يمكن أن نرتقى إلى سلم المدنية إلا إذا طهرنا بيوتنا من هذه العقائد الفاسدة " .

كما ندد بالنساء العجائز اللائى يلقن الأبناء أصنافًا من التخريف فذكر أن رجلاً أخذ أولاده ليشترى لهم طرابيش فقابله أحد أصحابه ولما عاد إلى بيته وأخبر زوجته بذلك قالت له : لا بد أن يكون هذا الرجل حسدكم . ثم ألزمته باستحضار شىء من أثر صاحبه لتبخر منه الأولاد فامتثل الزوج للأمر ، وذهب إلى صاحبه وأحضر منديله بحجة شراء مثله ثم أعاده إليه وأطرافه مقصوصة .

لقد نصح النديم الناس بالابتعاد عن مثل هذه الخرافات والعادات القبيحة لأنها ما حلت ببلد إلا وأخرجت منه التمدن وأبعدت عنه العلوم وأصبح مقامًا للأجنبى ، وناشدهم بالسعى خلف العلم والمعرفة فقال : " يأيها الوطنيون لم لا تجدون فى السعى خلف المعارف ، وقد ظهرت لكم ثمراتها لتضارعوا باقى الأمم فى التمدن الذى لا يكون إلا باجتناب الخرافات ؟ " .

٥- بين النديم لمواطنيه مضار بعض العادات وأوضح لهم أنها تؤذى ولا تنفع فتحدث عن الإسراف الذى يحدث عند الوفاة حيث تقام السرادقات فقال إن هذه الأمور تصرف فى غير سبيلها فربما كان للفقيد أطفال يئنون جوعًا ويرجون مرحمة ويحتاجون أن تصرف عليهم هذه الأموال . كما تحدث عما يحدث داخل السرادق حيث يأخذ لفيف من المعزين يغتابون سواهم والبعض منهم جلوس يراءون الناس بكلامهم الذى يلوكه لسانهم ويتعجب من ذلك بقوله : "وأى فائدة عادت للفقيد؟" ، ثم يدعو الله أن يرشد عباده الذين ضلوا السبيل .

وعن عادة " الجهاز أو الشوار " قال النديم إنها عادة تخلق بها الناس ، وتكون فى معظم الأحيان سببًا فى تخريب البيوت العامرة ، كما أنها تنزل بالفقراء إلى الحضيض حيث يهرع الناس لابتياع كل رخيص وغال لإتمام هذه العادة وانتقد ذلك بقوله :

"يحتمل أن يكون الزوج فقيراً ولا يقدر أن يسكن فى غرفة تلم هذه الأمتعة التى تهدمها كلمة الطلاق» .

٦- وعن علة الإطلاق وإسراف المسلمين فيها وفى التزوج بأكثر من واحدة طالب النديم الحكومة ورجال الشرع بوضع حد له وأن يكون للطلاق نظام حتى لا تتشرد الأسر ويتحطم الأبناء وحتى لا يساء فهم الدين وطالب من يتدخلون لفض النزاع فى مثل هذه الحالات أن يكون تداخلهم للخير والإصلاح وألا يحكموا على شىء قبل التروى حتى لا تشتعل نار الحقد بين العائلات بل يقومون بإصلاح ذات البين درءاً للمفاسد المترتبة على الخلاف والخصام لأن أكثر النزاع بين الناس يكون سبباً عن وشايات أرباب المفاسد وسعايات سيئى المقاصد .

٧- حذر النديم أبناء وطنه من الاتكال والتكاسل والجبن فى مواجهة المواقف والتنصل من المسئولية باعتبار كل شىء يخضع للقضاء والقدر وضرب لهم مثلاً على ذلك فذكر فى مقال له بعنوان "نهاية البلادة - كلها عيشة وآخرها الموت" - وتمنى ألا يكون من بين المصريين من ينطبق عليه هذا المثل - فقال : إن رجلاً ذهب إلى قرية فاستضافه شيخها ولما أقبل الليل ونام الرجل أحس بسارق يحاول خلع باب منزل الشيخ فأيقظه مضيفه وقال له إن بالباب لصا يحاول خلع الباب وسرقة المنزل

فلم يهتم صاحب البيت بل قال لصاحبه : "إللى على الجبين لازم تراه العين . والمقدر كائن ولا بد من إنفاذه " . ولما طلب منه صاحبه الاستعداد للمدافعة عن بيته ونفسه وأهله وماله رفض وقال له : " توكل على سيدك ونم " وجبن عن الوقوف فى وجه اللص فقام صاحبه وأمسك اللص وكتفه ومع ذلك لم يأبه صاحب البيت بل نام وقال لصاحبه : "كلها عيشة وآخرها الموت" .

لقد اتهم النديم صاحب البيت بالغباء وعدم معرفة قدر نفسه وشرف بيته وطالب أمثاله بالنظر إلى الإفرنج الذين يهاجرون من بلادهم ويتحملون المشقات لكسب الدرهم وذكره بأن المدنية والتقدم لم تحصل عليها البلاد عن طريق الجبن والكسل بل ببذل الجهد والعمل .

٨- وعن الخرافات الشائعة فى ذلك الوقت باسم " الاستخارة" و"المندل " تحدث النديم عن إقبال الناس عليهما فذكر أن أحد الدجالين حضر من المغرب مدعيًا أنه عليم بالاستخارة والخرافة الذائعة فى مصر باسم " المندل " فهب الناس قائمين إجلالاً له ، وذهب إليه الكثيرون ليكتب لهم خرافة من أساطير الأولين ، فكانوا يأخذونها فرحين وألسنتهم تقول : (خذ من عبد الله وتوكل على الله) . وقد نصح النديم الناس بعدم الاعتقاد

فى هذه الخرافات التى تعطل الفكر والإرادة لأنها لو كانت صادقة ما كان فى الدنيا غامض ولا مخبأ ولاعتمدت عليها المحاكم فى كشف السرقات والجناة، ولصار أصحاب هذه الخرافات من أغنى أغنياء الدنيا .

وقد ندب النديم الوطن لوجود مثل هذه البدع فيه فقال : " هل توجد مدنية على جانب من الجهل مثل مدنيتنا وعقائدنا الواهية؟ يقوم الغربى من رقاده باكراً ويفتح عينيه على قوته العاملة، ويقوم الشرقى صحوة النهار إلى مشعوذ سخيف ينظر في مستقبله فينحرف هذا حتى يشبع ذاك مالاً؟!» لقد كان هدف النديم من نقد مجتمعه الإصلاح وتهذيب الشعب وتقدم البلاد فكان المصرى الصادق الذى لا يتملق أبناء وطنه أو يداهن الحكام بل يبصر الناس بعيوبهم، ويعرض عليهم مشكلاتهم ويشاركهم فى البحث عن أقصر الطرق لعلاجها .

٩- وكما حذر النديم أبناء وطنه من العادات والتقاليد البالية السائدة بينهم، حذرهم من الاندفاع فى تقليد الأوروبيين بما لا يتفق وواقع الحياة الاجتماعية للشعب المصرى حيث بهرت المدنية الأوروبية البعض فاندفعوا لتقليدها من غير هدى وظنوا أن كل ما عليه الغربيون من الأخلاق والعادات هو سبب هذه النهضة الكبيرة التى هم عليها، وجهلوا أن لكل أمة مقومات وعادات إن

هى خرجت عليها كانت عرضة للفشل والانحطاط فكتب مقالاً بعنوان "فصل فى الأخلاق والعادات" حذر فيه أبناء وطنه من عواقب محاكاة الآخرين دون ترو فقال : "ينبغى لمن يغير عادته بعادة الغير أن ينظر فى أصل عادته وفوائدها ومضارها ثم فى عادة الغير كذلك فإن رأى حسن عادته وأنها من لوازم حفظ المظهر أو الثروة أو الوطنية أو الجنسية أو اللغة أو الدين لزم الإبقاء عليها ، فإن انتقل من عادته بلا روية ولا نظر للعواقب فقد أسلم ذاته إلى من انتقل لعادته بلا حرب ، ويعز عليه الرجوع لجنسيته ووطنيته وخصائص أمته " كما هاجم النديم المتفرنجين على صفحات جرائده ، ففى مقال له بعنوان " عربى تفرنج " تحدث عن شاب من أبناء الفلاحين سماه " زعيط " أرسلته الحكومة إلى أوروبا ليكمل تعليمه بعد انتهائه من الدراسة بالمرحلة الابتدائية ، وبعد أن أتم دراسته عاد إلى بلاده متبرمًا بعادات قومه وأخلاقياتهم ، ولم يكتف بذلك بل أخذ يذم أهله وبلاده كما نسى لغته العربية .

وصف النديم هذا الشاب بأنه لم يتهذب صغيرًا ولم يعرف حقوق وطنه ولا حق لغته ولا قدر شرف الأمة ، ونعته باللئيم الجاهل بحق الوطن .

كما انتقد النديم تقليد الناس لبعض الأفراد دون النظر إلى

المنفعة التى ستعود عليهم من ذلك فقال تحت عنوان " غفلة التقليد " : " إن رجلاً بنى بيتًا وزخرفه وملأه بالأثاث والمتاع ثم دعا بعض أصدقائه إلى وليمة، وكان فى جملة المدعوين أحد النبهاء، ولما انتهى بهم المجلس أخذ يقص عليهم مقدار ما صرفه فى بناء هذا البيت وأنه اشترى خزانة كتب، ووضع بها كتبًا بمائة جنيه، ولما سئل عن الكتب التى يفضل قراءتها قال إنه لا يفضل منها شيئًا ولكنه دخل بيت الشيخ فلان والسيد فلان والحاج فلان والهمام فلان والأمير فلان فرأى فى مضيفة كل منهم خزانة بها كتب وعليها ستارة خضراء وبجانبها منشة من الريش والخادم كل يوم ينفضها ويمسح الزجاج والخزانة فأحس أن هذا طراز جديد فى بناء البيوت فرتب مضيفته مثلهم ليكون فى صف المتمدنين فلعن النبيه الجهل وسب التقليد وقال : لقد أصبح الكل نائمًا فى غفلة التقليد .

١٠- ولما انتشرت أماكن بيع الخمور انتشارًا كبيرًا فى البلاد وكثرت أماكن اللهو وزادت أماكن دور القمار حتى وصلت فى القاهرة وحدها من ٣١٦ إلى ٧٤٧٥ دارًا أى بزيادة ٧١٥٩ دارًا فى السنوات الأولى من عهد الاحتلال، فقد حذر النديم أبناء وطنه من ارتياد هذه الأماكن مصورًا أحوال من يدخلونها بأنهم يخسرون صحتهم ويفقدون أموالهم، موضحًا المساوئ والمفاسد

المترتبة على ذلك واستند إلى موقف الدين الذى حرم الخمر بقوله تعالى "يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير"، فقال: "اجتمع فى الخمر من المفاسد ما لا يجتمع فى غيرها من البواعث، وكل مسكر خمر وكل خمر حرام" كما اتهم الإنجليز بالتشجيع على إقامة هذه الأماكن حتى تتفتت الأسر وتنتشر الجرائم وينحل الشعب المصرى، وانتقد النديم تفاخر بعض الشبان بأنهم يشربون الخمر ويلعبون الميسر حتى يكونوا شبانًا عصريين وصور حالتهم بعد دخولهم الحانات فقال: "إنهم يتمايلون ذات اليمين وذات اليسار، وقد ذهبت عقولهم وطاش صوابهم وهم بين نعيق وصفير وقهقهة وسباب يخترقون الأزقات لمعاكسة الفتيات، ويظهرون من شقشقة اللسان الأقاويل البالية التى لا يمحوها إلا عقاب شديد". كما ذكر أن شارب الخمر يغيب عقله فيتكلم بما به يكفر، وربما طلق زوجته وهو لا يشعر. كما وصف أحوال من يخسرون أموالهم فى لعب القمار بالحزن والغيظ ونصح العقلاء بعدم مسايرة هؤلاء الجهلاء فى مفاسدهم حتى لا يسيئوا إلى أنفسهم، ودعا الذين يفقدون أموالهم على موائد القمار أن يوفروها للعمل فى التجارة أو الصناعة وذكرهم بأن الحرية ما هى إلا الوقوف عند الحدود والمطالبة بالحقوق، وأنها من أكبر دعائم العمران لو أن الناس

فهموا معناها وأحسنوا استعمالها ، ثم ذكر أن هذا لا ينطبق على المزدحمين على أبواب محال البيرة والخمارات وبيوت العاهرات الذين اتخذوا من الحرية الشخصية طريقًا لفعل المنكر واعتبرهم الفريق المفسد لعقله وماله والذى لا يعرف الضار من النافع حيث إن منهم من ينفق فى الخمارة الريال أو الجنيه كل ليلة وأولاده بلا عشاء وربما أنفقه من كسب زوجته أو مسروقًا من مال أبيه ، وطالب بالحجر على هؤلاء السفهاء والبعد عن هذه الرذائل والتحلى بدواعى الكمال والانتباه من غفلة الضياع مالاً وذاتًا .

وعندما اعترض البعض على دعوة النديم بحجة أن ذلك يؤدى إلى نقص ميزانية الجمارك مائتى ألف جنيه وإفلاس عشرين ألف تاجر أوربى رد عليم النديم بأن قولهم هذا يدل على قلة الإدراك وضعف العقل ، وأن الخديو والحكومة لا يهمهم إلا ما فيه مصلحة البلاد وتحلى أبنائها بالكمال والفضيلة وإبعادهم عن السقوط فى النقائص والرذيلة ، وأن من الأولى بنا أن نحول بين شبابنا ومفسدات عقولهم وأموالهم لنحول بينهم وبين الجنون والإفلاس ، كما صور النديم فى محاورة له بعنوان " حنيفة ولطيفة " أن الانهماك فى شرب الخمر وغيرها من المكيفات يؤدى إلى ضياع الأموال وترك الأولاد " عرايا وجعانين وإنه ترك حنيفة الخمر وفر اثنى عشر جنيهًا كل شهر واشترى أطيان الميرى

اللى الفدان بعشرة جنيهات " . وفى مقال للنديم بعنوان " سهرة الأنطاع" تحدث عما تسببه عادة الكيف من تبلد الفكر والجبن وسوء الأخلاق، وطالب أبناء الوطن بالتفكير فيما يساعد على تقدم البلاد والنظر إلى أحوال الأمم وسير العقلاء حتى تظهر أنوار المعارف والآداب، كما حذر الشباب وخصوصًا أبناء الذوات من الإسراف والانهماك فى شرب الخمر ولعب الميسر، وضرب مثلاً بالسكارى لعل بعضهم يقتدى به ويسير حذوه فتحدث عن إقلاع أحد المدمنين عن شرب الخمر فوفر مالا بنى به بيتًا " بدلاً من اللى كان بيروح منه كل شهر ١٢ جنيهًا كانوا بيروحوا فى طريق الشيطان الرجيم، وخذ من التل يختل "١١-وعن إباحة الزنا والأضرار الاجتماعية التى تحدث من ذلك انتقد النديم حرية إباحة الزنا فذكر أنها لا توافق تقاليد أهل الشرق ولا أديانهم كما قال : " اتفق المسلمون والنصارى وإليهود والمجوس على الغيرة على النساء وصيانتهن وأجمعوا على تحريم الزنا وقبحه " .

وهاجم قانون الكشف على البغايا بمعرفة أطباء الحكومة وإعطائهن شهادات بأنهن صالحات للزنا فهتكوا حرمة القرآن والإنجيل والتوارة. وتكلم النديم عن البيوت السرية فقال إنها " ليست سرية بل معلومة ولا تخفى على رجال الضبط والربط " وطالب أن تكون هذه البيوت بعيدة عن بيوت الناس الطيبين دفعًا للشبهات .

كما تحدث عن تضليل المفسدين لعقول الشباب للانغماس فى هذه الموبقات حتى يفسدوا المجتمع ويقضوا على قيمه وأخلاقياته فكتب تحت عنوان "مجلس طبى لمصاب بالإفرنجى" مقالاً صور فيه أحد المفسدين ادعى أنه من الأتقياء وتسلل إلى شاب مستقيم الحال صحيح الجسم معتز بنفسه حتى أوقعه فى مهاوى الرذيلة فأصيب بالداء الإفرنجى (يقصد مرض الزهرى) حتى بهت لونه وتمكن الداء منه .

١٢- كما هاجم النديم تقليد بعض النساء المصريات للأجنبيات فى شرب الخمر والتشدق باستخدام كلمات أجنبية خلال الحديث بالعربية ولبس الضيق والمحبوك من الثياب الإفرنجية والانهماك فى الملذات والشهوات والاستهتار بالدين والوطنية ، واتهم الأوربيين بأنهم وراء هذه المفاسد حتى يضمحل الشرق وتنحل أخلاق أبنائه وينتشر الفساد وقبيح العادات ، حيث إن الأوربيين لم يرعوا حرمة أى شىء ، وقد كان النديم فى ذلك معبراً عن رأى كثير من الأهالى ، والدليل على ذلك الشكوى المقدمة من سكان وأصحاب أملاك بشياخة رفاعى محمد التابعة لقسم اللبان إلى مجلس بلدى الإسكندرية حيث يتضح منها شكوى الناس بقولهم توجد أماكن " مؤجرة إلى مومسات محدقين بمنازلنا من كل الجهات وحيث إنه موجود

أيضًا مسجدان للعبادة أحدهما لأولاد منصور الفحام المشهور والآخر تعلق الشيخ عرفه العطن، وكان سبق منا تقديم جملة عرض حالات للمحافظة والداخلية بهذا الخصوص، وسعادة محافظنا أمر بنقل المومسات الوطنيات إلى النقط المعدة لهن، ولم يبق الآن غير هؤلاء الأجانب يجولون فى الشوارع والأزقة أمام منازلنا متهتكات لا يعتنون بوعظ واعظ. وحيث إن وجود تلك العواهر بهذه النقطة المهمة مخل للآداب وعلى غير السير الانتظامى خصوصًا لقربهم من محلات العبادة فلا يمر عليهن أحد فى الطريق الموصل لأحد المساجد المذكورة أو لمنزله إلا ابتدره تلك النسوة ودعونه لفعل الفاحشة. وبهذا السبب منعت إقامة الشعائر الدينية بتلك المساجد وهجرت". كما يذكر أصحاب هذه الشكوى أيضًا أنه يوجد بزقاق المساجد المذكورة قهاوى الحشيش والخمامير والكرخانات معًا" ويتساءلون بقولهم هل القوانين العادلة وغير العادلة تصرح بغلق أبواب المساجد وفتح أبواب المفاسد؟ ثم يلتمسون من أولى الأمر خروج تلك النسوة من هذه الجهة التى بها مساكن الأحرار ومحلات العبادة المقدسة " حفظًا للآداب وصيانة الأعراض وراحة السكان " .

وهناك شكوى أخرى قدمها أهالى طنطا ضد سيدة فرنسية افتتحت منزلاً للدعارة على شكل فندق فى مكان مأهول

بالسكان ومع ذلك لم تستطع المحكمة اتخاذ أى إجراء لحماية الأهالى لكون لائحة المومسات التى صدرت فى يوليو ١٨٨٥ لا تشمل الأجنبيات . لقد علق أحد النبهاء بمجلة " الأستاذ " على أحوال البلاد فى ذلك الوقت بقوله : " إن حالتنا الحاضرة تشبه عليلاً مصابًا بمرض باطنى وقد قصد دجالاً فأعطاه دواءً قابضًا فأصبح يشكو مرضين ، وهذا ينطبق على أحوالنا ؛ فإننا بدلاً من معالجة أمراضنا القديمة بأنوار التمدن فقد زدنا عليها كافة الرذائل وكفانا برهانًا .

وهكذا تناول النديم الآفات الاجتماعية التى لحقت بالمجتمع المصرى بأسلوب مؤلم لم يتملق فيه أحدًا بل استخدم أسلوب التبكيت حيث كان لازمًا للإيقاظ والإنهاض لأن الإصلاح لا يأتى إلا من فهم الناس لأخطائهم وتوضيح الأسباب التى أدت إلى تخلفهم والوسائل المعينة على العلاج ، لذلك كانت دعوته قوية وخصوصًا أنه اتخذ من الدين طريقًا لتنبيه الناس نحو إصلاح مجتمعهم فأوضح أن أسباب هذه العلل هى جهل الناس بأصول دينهم وعدم إذعانهم لعقائده وأحكامه وأنه ليس هناك وسيلة لمكافحة هذه الآفات أفضل من الرجوع إلى الدين .

كما تبنى النديم أسلوب النقد العنيف ضد الأوربيين بسبب ما جلبوه على البلاد من مفاسد ، وقد تميزت مقالاته بأنها لم تكن

كلها مجرد زجر ونواه مما قد يبعث على الملل ، بل اتخذ أكثرها شكل محادثة لطيفة تتميز بالواقعية .

موقف النديم من العدالة الاجتماعية :

قسم النديم المصريين إلى ثلاثة أقسام : فقراء ، وأغنياء ، وأمراء ، وطالب بأن يسود بينهم العدل والمساواة حتى يتقدم المجتمع ، لأن الإنسان ما لم يشعر بقيمته وتقدير المجتمع له فلن يكون منتجًا ، وذكر بأنه لن يتحقق ذلك إلا إذا ساعد الغنى الفقير والقوى الضعيف ، فالقانون الإلهى يسوى بين الأمير والحقير والقوى والضعيف ويحكم بمسئولية كل فرد من الأفراد عن أقواله وأفعاله بين يدى مولاه يوم يبعثه فى النشأة الآخرة .

ترجم النديم عما يدور بخواطر أبناء وطنه وطالب بإنصاف الفقراء من الأغنياء وهاجم الذين يستعبدون الفقراء من الأغنياء وطالب بتخليصهم من قسوتهم فقال : " إنهم يرون أن الفقراء خلقوا لخدمتهم ومدحهم ، وأن الله فرض عليهم حب الأغنياء ، وتعظيم ذوى الهيئات ، وإن كانوا من المجرمين لا يحسنون الظن بالفقير ، ولا يسمعون منه كلامًا وإن كان حقًا ، ولا يعترفون له بفضل وإن كان عالمًا بما جبلوا عليه من عداوة الفقراء " ، ثم ندد ببذخ الأغنياء وترفهم بينما الفقراء لا يجدون ما يسدون به رمقهم فقال : " أليس الرجل منكم كالرجل منا فما بالكم لا

ترضون بثلاثين صنفًا من الطعام ونرضى بالخبز والملح، ولا تقنعون بألوف من الجنيهات ونقتنع بالقرش الواحد. أخُلقتم من الذهب وخُلقنا من التراب أم ولدتم قابضين على أزمة الدنيا وولدنا عبيدًا لكم، أم نزلتم من السماء، ونزلنا من بطون الأمهات". كما حذرهم من أن غالبية الشعب من الفقراء وأنهم قلة فقال: " ألا ترون أنكم تعدون على الأصابع فى بلادنا والفقراء هم الأمة".

وفى رواية " الوطن وطالع التوفيق " تحدث النديم عن عدم اهتمام الأغنياء بمصلحة البلاد وانكبابهم على التفاخر والتباهى بما لديهم من ثروة فقال: "الأغنياء مقتصرون على استخدام الفقراء والهدوم النظيفة والمآكل والمشارب، وإذا اجتمعوا يفتخرون بالطباخين والجوارى والخدامين والبيوت"، ثم خاطب ضمائر الأغنياء مؤنبًا لهم على ترك الفقراء يتضورون جوعًا بينما هم يجلسون أمام الموائد الحافلة بصنوف الطعام والفقراء ينتفضون من شدة البرد وقلة الغطاء بينما هم ينامون على الفراش اللين والوثير فقال: "أيها الفرح بما ملكت يداه ما أحزنك لو تأملت المضطر يتضور جوعًا والبائس ينتفض بردًا والغريب لا مأوى له يستكن فيه واليتيم لا قيم له يرشده ويعلمه والمريض المعدم لا مال له يطبب به نفسه ولا متاع يبيعه لينفقه فى حفظ

حياته أُفْ لك ولمالك" . ونصحهم بأن ما يصرفونه فى الملاهى الليلية يمكن صرفه على الأيتام والفقراء فيستقيم حال المجتمع فقال : "إن أحدكم يصرف فى الملاهى عشرة آلاف جنيه فى كل عام ولو مال بتربية الأيتام لربى بها مائة يتيم" ، ثم وصف الأطعمة الفاخرة التى يتناولها الأغنياء يوميًا فقال إنها تشمل "خمسة أصناف أو ستة ، يتداولون فيها الصحون المحمرة والكباب والكفتة وكباب الفرن بينما لا يتناول الفلاح سوى صنف واحد يطبخ كل ليلة من عدس أو كشك أو بصارة أو فول أو دشيشة" وفى وجبة الغذاء يكون طعامهم "مش أو جبن أو كرات أو فجل أو مخلل" . كما انتقد النديم تعامل الأغنياء مع الأجانب والغرباء بينما لا يتعاملون مع أبناء البلاد من الفقراء بينما يتركونهم يتضورون جوعًا فقال : "ألا يخجل (الغنى) إذا أعطى الغريب الدرهم وجاره يموت جوعًا ، وهو لا يشعر ما هذه الحياة التى تنسى بموت صاحبها" .

كما طالب الفقراء بتكوين عصبية لمواجهة الأغنياء ثم حذر الغنى من غضب الفقير عليه فقال : "أنت تحيى الكثير من غير أهلك وتتلذذ بشهواتك وأنت تنغص حياة الألوف . . فبؤت بغضب الأمة وسخط البلاد" .

رأى النديم فى فقراء المصريين دعامة للثورة لأنهم أصل كل

شيء وأن الأغنياء لا يفيقون من غفلتهم إلا إذا حركهم الفقراء، وبدأوا بأنفسهم فى الإصلاح حيث هم عميان عن طريق التقدم إلا بمرشد والمرشد هم الفقراء . لقد خرج النديم من طابور الفقراء، وعاش فى قلة من العيش وكان سعيدا بذلك ويتضح ذلك من قوله : "أما اللذة المقصودة بالشهرة فإنها ظاهرة فى سرير نومى الحديدى الخشن وسترتى الوحيدة القديمة" . ولم يرث النديم أى مال أو جاه من أبيه الخباز الفقير بل عاش عيشة عريضة واختلط خلالها بطبقات المجتمع الدنيا فاختلط بالفلاحين ورأى بؤسهم، كما رأى الأغنياء يستغلون الفقراء فى مجتمع استغلاله يمحق إنسانية الإنسان .

هكذا تعايشت الثورة السياسية مع الثورة الاجتماعية فى حدود إمكانات العصر ومفاهيمه، وهكذا نبه النديم أغنياء عصره إلى خطورة إهمالهم لإصلاح حال الوطن وأبنائه من الفقراء مبينًا لهم أن الحياة ليست التباهى بكثرة الأموال والحشم والخدم، بل بالدور الاجتماعى الذى يقومون به لخدمة مجتمعهم .

(٢٢)
أساليب النديم فى العمل الوطنى
(الخطابة - الصحافة - العمل المسرحى)

تعددت مراحل العمل الوطنى عند النديم فبدأ حياته السياسية بالانضمام إلى الجمعيات ذات الصبغة السرية فدخل الحركة الماسونية كما دخل جمعية "مصر الفتاة" السرية، ولما أحس أن العمل من خلال هذه الجمعيات لا يتفق وطبيعته الشعبية لجأ إلى العمل الوطنى العلنى، واستخدم فى ذلك الوسائل التى أعانته على مزاولة هذا العمل وهى الخطابة والصحافة، كما طوع فن المسرح لخدمة المبادئ الوطنية فاستخدم المسرحيات لتوصيل أفكاره إلى مواطنيه. وإلى جانب ذلك فقد شجع على تأسيس جمعية الشبان بالإسكندرية لتكون سنداً للحركة الوطنية، وبما أنه قد تم معالجة انضمام النديم إلى الجمعيات ذات الصبغة السرية

وجمعية الشبان فى صفحات سابقة فإننا سنقتصر هنا على الخطابة والصحافة ثم المسرح كأسلوب من أساليب العمل الوطنى لدى النديم .

الخطابة :

لما كانت الأمية " متغلبة على السواد الأعظم " من المصريين فى ذلك الوقت حيث كان معظمهم لا يقرأ ولا يكتب وفى حاجة إلى من يوضح له المسائل فقد اهتم النديم بالخطابة كوسيلة تمكنه من نقل أفكاره إلي أبناء وطنه فأقام فى ٢٢ أغسطس ١٨٧٩ محفلاً للخطابة فى ساحة الجمعية الخيرية الإسلامية لإلقاء الخطب به يوم الخميس من كل أسبوع وفى الحفلات التى تعقدها المدرسة والمناسبات الوطنية والدينية ، وعن ذلك قال : " افتتحنا المدرسة على تلك القواعد المؤسسة بمحفل جمع الأمراء والوجهاء والوزراء والنبهاء والمحافظ ومأمور الضبطية وجملة من أمراء الجهادية ، وقمت فيهم خطيبًا وأسمعتهم كلامًا رطيبًا وأطلت والناس بين ناقد ومحقق ومصفق ، فكنت أول خطيب مصرى وقف بين الحكام الظُلام وفتح فاه بكلام . ولما اشتهرت الجمعية بالسمعة جعلت هذا المحفل فى ليلة كل جمعة وأطلقت الخطابة لكل خطيب ، وفتحت المحاورة لكل نجيب " . وأخذت ساحة المدرسة تغص بالوافدين عليها الذين أخذ عددهم فى

التزايد حتى وصل إلى خمسمائة مستمع فى كل اجتماع، وكانت خطب النديم فى هذا المحفل ظاهرها الإصلاح الاجتماعى والثقافى وباطنها تنبيه الأذهان إلى ما وصلت إليه البلاد من سوء حال، وأسباب تأخر الشرق وتقدم الغرب كما كانت " مصبوغة بدم الغيرة الوطنية، تمحو فتور الإنسانية "، وقد نشرت بعض الصحف هذه الخطب فى صفحاتها الأولى .

كما أخذ النديم يتنقل بين البلاد لتحريك أفكار الناس فيرتقى منابر المساجد ويقف فى كل محفل، ويخطب فى كل ناد حيث يرتجل الكلام ارتجالاً، ويتدفق فيه تدفقًا، يجلس إلى الفلاحين فى مجتمعاتهم فيبذر فيهم بذور الثورة .

ولما كانت الخطابة فى ذلك الوقت مقصورة على خطباء المساجد ووعاظها وفى معظمها عبارات دينية متكررة ومحفوظة تتلى على مسامع العامة دون أن تحرك القوى الكامنة فى النفس فقد حاول النديم تغيير منهج هذه الخطب لأهميتها فى نشر الوعى الوطنى وتحويل المجتمع - خصوصًا الفلاحين لأنهم قاعدته الأساسية- إلى قوة وطنية ضاربة، فكتب مقالاً تحت عنوان "ألسن الخطباء تحيى وتميت " ذكر فيه أن الخطابة مهمة لتنوير العقول حيث هى بمثابة الغذاء للبدن على مر العصور، ثم ذكر أن خطبة الجمعة فرضت فى الإسلام لأمر تغيب عن كثير من الناس

حكمته، وهو أن يقف الخطيب بين قومه وقفة الخليفة الآمر الناهى، فيقص على الرعية ما ورد عليه من الأخبار، وما يرجوه من الإصلاح، ويوضح لهم أحوال البلاد وأحوال من بعد عنهم من إخوانهم المؤمنين لتكون الأمة على علم بأحوالها فى سائر بلادها حيث يكون فى هذا من النصح والوعظ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما لا ينكره إلا مقيد بديوان أو مربوط فى بعض وريقات صنفها غيره، ثم تحدث عن أهمية خطبة الجمعة فقال إن أمة تجتمع كل أسبوع فى ساعة واحدة فى سائر أنحاء بلادها، وتسمع من حوادثها وغوامض سياسة خلفائها ما يقف به كل فرد على أحوال البلاد وسيرها وتقدمها لهى أمة جديرة بالتقدير، وذكر الخطباء أن الخطابة لم تكن فى الإسلام قاصرة على ذكر الموت والزهد والتحذير من الدنيا وزخرفها كما يحدث الآن، بل كانت تتضمن أخبار الأمة وحوادثها لأنها بمنزلة الجرائد ودعا إلى أن يتبرع الأعيان بمبلغ من المال يخصص لنشر الخطب الأدبية والسياسية، كما أعلن عن استعداده لكتابة خطبة فى كل أسبوع تتناسب مع الأحوال ثم تطبع وتنشر فى سائر أنحاء القطر لتنبه الأفكار، وتعرف الأمة قدرها وما تحفظ به نظامها بين الأمم، وطلب أن يجتمع الأعيان، ويعرضوا ذلك على ديوان الأوقاف ليتمكنوا من العمل بالخطبة . وقد وضع النديم نموذجًا لخطبة

يمكن السير على منوالها تحدث فيها عن أهمية الاتحاد وحث على الائتلاف وحذر من الاختلاف وطالب بالابتعاد عن الظلم والبغى فى معاملة الآخرين والتمسك بالدين مع عدم التعرض للأديان الأخرى والابتعاد عن التهور لأن ذلك يجلب الشر للأمة ، وذكر بحقوق النزلاء وعدم الإساءة إلى الأجانب . بهذه المعانى أراد النديم أن تسير خطبة الجمعة لتوضح للشعب ما يمكنه من السير فى الطريق السليم لأنها تعد بمثابة إذاعة محلية وطنية .

وقد برز نشاط النديم الخطابى بعد اتصاله بالعرابيين ، ويبدو أن من أسباب قوة تأثيره فى الناس بخطبه أنه كان يندمج تماماً وينفعل بها ، كما كان لديه القدرة على تصوير مآسى الفقراء حيث عاشها هو بنفسه . أما عن دوره الخطابى خلال أحداث الثورة العرابية فبعد حادث قصر النيل جاءت الوفود لمبايعة عرابى فاستغل النديم ذلك فى إبراز مواهبه الخطابية ، فخاطب عواطف الناس وحضهم على التكاتف والاتحاد ، وبين لهم أحوال البلاد فى أسلوب مؤثر ، كما وضح لهم أضاليل الإفرنج ومفاسدهم حتى جعل مستمعيه على استعداد لبذل الروح والمال فى سبيل الوطن .

وفى أثناء مظاهرة عابدين وقف النديم خطيباً بين الجنود فكان

كما يذكر عرابى " ثانى اثنين فى حفظ قلوب الرجال من الزيغ والارتجاف " . كما كان له موقف بارز فى وداع آلاى عبد العال حلمى إلى دمياط حيث وقف خطيبًا موجهًا حديثه " إلى حماة البلاد وفرسانها " مشيدًا بشجاعتهم موضحًا واجبهم فى الدفاع عن البلاد . وقد ألقى النديم خطبة فى وداع عرابى عند سفره بآلايه إلى رأس الوادى فى ١٨ أكتوبر ١٨٨١ فقال : "رأينا المشنوق من أهلنا والمصلوب والمذبوح والحريق والموضوع على الخازوق والمشرد والمغرب والمنفى والمسجون والمنهوب والمسلوب ولا ذنب لنا فى هذا كله إلا عدم المحافظة على البلاد ، ثم رأينا الدور الثانى فشهدنا جنازة المسموم والمخنوق وودعنا المنفى ، ولا جناية لهؤلاء إلا المطالبة بحقوق الأمة . ثم وصلنا إلى الدور الثالث فرأينا مساعدة الأجنبى وإكرامه وتكثير العطية وتسليمه أزمَّة الكثير من أشغالنا وإذلال الوطن ، وضياع حقه وتركه فى زوايا الإهمال فوقفنا عند هذا الحد وسعينا فى طريق الاتحاد وجمع القلوب ، وأعربت الجيوش عن ضمائرها ، وترجمت الحمية عبارتنا ونادى الجند المظفر المنصور بحقوق الأمة" .

لقد وقف النديم خطيبًا يعبئ مشاعر الناس ويعبر عن أفكارهم فى أسلوب واضح استثار به حماسة مواطنيه ، ولما سافر النديم إلى الشرقية مع عرابى جعل منها مكانًا خصبًا لخطبه .

وحينما استعدت البلاد لانتخابات مجلس النواب طاف النديم بالأقاليم يخطب فى الناس موضحًا لهم أهمية اختيار الأصلح. ونتيجة لخطبه المؤثرة التى أيقظت شعور الأهالى خشى شريف باشا مغبة الأمور فحاول الترصد للنديم والتخلص منه .

كما كون النديم فرقة من تلاميذه الذين علمهم الخطابة وجعل منهم فرقة " دعاية " تطوف معه الأقاليم لتساعده فى نشر دعوته مستغلاً فى ذلك فرصة إيجاد أى تجمعات لتوضيح مقاصد الحركة الوطنية فكان له المواقف المشهودة والأيام المعدودة ، وحتى الأفراح فقد استغلها النديم فكان الناس يسمعون وصلة من الغناء ثم خطبة من النديم حتى شاع عن محمد عثمان المغنى الشهير فى ذلك الوقت أنه إذا سئل فى أى فرح تغنى الليلة كان يقول : " فى الفرح الفلانى مع عبد الله النديم " .

وعندما تألفت وزارة محمود سامى البارودى وأعلنت أن من حق مجلس النواب الإشراف على الميزانية شارك النديم البلاد فى بهجتها حيث خطب فى وفود المهنئين متحدثًا عن الحرية وأهمية الائتلاف والتحالف والعدل والاستقلال والتعاون فأشعل القلوب بالحماسة والوطنية وسيطر على عواطف الناس بفصاحته وطلاقة لسانه. وحينما أقام الضباط حفلاً بسراى قصر النيل لتهنئة البارودى برئاسة مجلس النظار وعرابى بنظارة

الجهادية قام النديم وألقى خطبة فى ثمرة الاتحاد وأهمية التحالف وحب الوطن والتغنى بأمجاده واستمر فى ذلك حتى الصباح، كما افتتح النديم الحفل الذى أقامه الحزب الوطنى فى جمعية المقاصد الخيرية فى ١٨٨٢/ ٢/ ١٢ ثم علق على أحاديث الخطباء أربع مرات متخذًا من موضوعاتهم مجالات جديدة للحديث، ولما انتقلت هذه الاحتفالات إلى الأقاليم حيث عقد بعض الأعيان الاجتماعات وأقام بعضهم الولائم للعرابيين كان النديم نجم هذه الاحتفالات .

ولما كشفت مؤامرات الشراكسة ألقى النديم خطبًا تناولت ذم الشراكسة والتنبيه على سلامة عرابى، وفى أثناء الأزمة بين الخديو والوزارة نتيجة المذكرة المشتركة فى ١٨٨٢/ ٥/ ٢٥ توجه النديم إلى الأزهر وجعل من منبره مكانًا لتوضيح الأمور فخطب فى رجاله ملهبًا حماستهم حتى أحاطوا به وهم ينادون " اللائحة مرفوضة "، كما أفتى بعض المشايخ بتكفير الخديو، وبعد أن أتم النديم مهمته بالأزهر توجه إلى الإسكندرية المحاصرة بالأساطيل يخطب فى شوارعها ويقود المظاهرات الشعبية، كما عقد اجتماعًا ضم نحو عشرة آلاف شخص نادى فيه برفض المذكرة المشتركة وهاجم موقف الخديو، واتهمه بالخيانة، ولما حضرت بعثه درويش إلى القاهرة وأشيع أن السلطان أرسل البعثة للحث

على قبول المذكرة المشتركة عقد النديم بالإسكندرية اجتماعًا لنحو عشرة آلاف شخص تكلم فيه ساعتين ضد المذكرة، كما تحدث عن عدم كفاءة الخديو للحكم ثم استمر فى حملته الدعائية وأرسل تلاميذه إلى المديريات يخطبون فى الناس ويطلبون منهم كتابة العرائض احتجاجًا على التدخل الأجنبى، وأرسلها إلى درويش باشا .

وعندما أساء درويش معاملة علماء الأزهر عقد النديم اجتماعًا بالمكان المعد للصلاة بالجامع الأزهر، وخطب فى جمع تجاوز أربعة آلاف شخص حمل فيه على البعثة التركية والخديو حملة مؤثرة كان لها أكبر الأثر فى النفوس، مما هز مركز درويش وجعل المجتمعين ينادون برحيله ولو بالقوة .

وعندما قامت الحرب بين العرابيين والإنجليز قام النديم بتعبئة الشعور الوطنى وظهرت مواهبه الخطابية حيث كان قديرًا على اللعب بعواطف الناس فأسرع إلى الأزهر مشعلاً حماسته لمناصرة الثورة حتى أفتى بعض المشايخ بتكفير الخديو لانحيازه إلى أعداء الوطن. ثم أخذ يجوب مدن البلاد وقراها لحفز الهمم فى مواجهة أعداء الوطن والدين فكان لخطابته دوى شديد فى النفوس حيث تناقلها الناس فيما بينهم وتزاحموا على إعانة الجيش بما يلزمه .

وبعد أن انتقل النديم إلى ميدان القتال أخذ يخطب فى الجنود ويحثهم على الاستبسال فى المعركة وينتقل بين صفوفهم يلهب حماستهم، وقد وضح ذلك بقوله : "وكنت كلما مررت على أورطة أحمسها وأشجعها فلا أسمع منها إلا صوت البنادق ولا أرى إلا سرعة حركتها" . ولم يقتصر نشاط النديم الخطابى على مدة الثورة العرابية بل كان همزة الوصل بين جيل الثورة العرابية والجيل الذى حمل الراية بعد انتكاسة الثورة، فكان صاحب أول مدرسة خطابية فى العصر الحديث، حيث أوصى الشباب بأن يتقنوا فن الخطابة، وأخذ يمرنهم عليها، وخص بعنايته مصطفى كامل بعد أن وجد فيه الاستعداد وتبينت له قدرته الخطابية وطالعته من مواهبه أمارات الزعامة، فشحن عواطفه بما فى نفسه من أفكار مكبوتة سنين طوالاً، وقد ظهر أثر النديم واضحًا فى خطبة مصطفى كامل وأسلوبه، حيث اقتبس منه بعض أساليبه فى الخطابة، وكان ممن يرددون نغماته .

لقد اختلف الكثيرون فى الحكم على الثورة العرابية وعلى قيادتها، ولكن لم يختلف منهم أحد فى أن النديم كان خطيب الثورة العرابية الأول، وأنه كان خطيبًا ملهمًا يتمتع بكل الصفات التى تجعله خطيبًا مرموقًا مما دفعنا إلى البحث عن العوامل التى ساعدته على إتقان هذه الموهبة بالرجوع إلى بعض نصوص

الخطب التى ألقاها ، والمقالات التى تحدث فيها عن قيمة الخطابة حتى نصل إلى أسباب مقدرته فى هذا الفن .

وبالرجوع إلى مقاله " ألسن الخطباء تحيى وتميت " وخطبة الجمعة التى اقترحها كمنوال يمكن أن يسير عليه خطباء المساجد يتضح لنا مدى إحساس النديم بقيمة الخطابة فى توعية أبناء وطنه فى النواحى الاجتماعية والسياسية والدينية حيث أبرز أهميتها بقوله : " إنها للعقول بمنزلة الغذاء للبدن " ، كما ذكر أنه عن طريقها " تتضارب الأفكار وتتنبه الأذهان وتحيا الهمم وتتحرك الدماء " ، وهذا يوضح لنا أن الخطابة من وجهة نظر النديم ليست كلامًا منمقًا فقط ، ولكن وراءها فكرة تطرح بنبرات وأسلوب يتناسب مع جمهور السامعين . ثم تطرق النديم إلى إبراز أهمية الخطابة فى العصرين الجاهلى والإسلامى ، فذكر أن خطباء ما قبل الإسلام " لم يقتصروا فى خطاباتهم على مسائل الحرب والصلح بل كانوا يخوضون بحار الأفكار فلا يتركون ملمة إلا شرحوها ولا يذرون فضيلة إلا حثوا عليها " ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت بلاد العرب " منيعة المقام " وهابتها الأمم . ثم تحدث عن دور الخطباء فى الإسلام وبين أهمية خطبة الجمعة فى المجالين الدينى والدنيوى . ثم انتقل إلى الدعوة إلى النهوض بالخطابة فى عصره فقال إن الخطابة فى الأمة بمنزلة جرائد

الأخبـار . ويـين لأولى الأمـر الأسـبـاب الـتى يـلـزم من أجـلـهـا النهوض بالخطابة فقال : " إن الأمية كثيرة فى بلادنا متغلبة على السواد الأعظم منا ، ولو كانت الأمة قارئة كلها لاستغنت عن تغيير هيئة الخطابة بالجرائد ، ولكن مطالعى الجرائد عدد قليل محصور فى دفاتر المحررين ، والأميون فى ظلمات الجهالة قد ضرب بينهم وبين ما يقدمهم بسور لا باب له فترى الرجل يجهل حال المديرية المجاورة لبلاده ولا يعرف بعض بلاد قطره إلا سماعًا من الـناس " . لقد استغل الـنديم قدرته على الـتمكن من اللغة الـعربـيـة فى إبراز مواقـفه الخطـابية فـاستـشـهـد بـالقـرآن الكـريم والأحاديث النبوية الشريفة وأبيات من الشعر لتأييد فكرته وحتى تكون حججه مقنعة ويعطى لأسلوبه مذاقًا يقبله السامعون فكان يسجع أحيانًا ويسترسل أحيانًا أخرى ، وأعانه على ذلك لسانه الفصيح وبديهته الحاضرة وجرأته الفائقة فى مواجهة المواقف وإن تعددت فى المناسبة الواحدة فكان كما يذكر معاصروه خطيبًا لسنًا متوقد الذهن صافى القريحة ، قوى الأداء جهير الصوت شديد العـارضة لا يـدانيه أحد فى بلاغته وفصاحته وتمـلكه لـناصية القول وقوة أسره وشدة تأثيره على الجمهور يرتجل فلا يعيبه الارتجال ويفـجؤه المـوقف فلا يزيـده إلا حسـنًا ، فكـان خطـيبًا مـطبـوعًا ومـحدثًا من الطراز الأول شـهـد له بـذلك العـدو قبل

الصديق فقد وصفته جريدة «التايمز» اللندنية بأنه من أشد الخطباء عنفًا وإثارة .

قال عنه جمال الدين الأفغانى : " ما رأيت مثل النديم طوال حياتى فى توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة المعارضة ووضوح الدليل ووضع الألفاظ وضعا محكمًا بإزاء معانيها إن خطب أو كتب " " وقال عنه أحمد تيمور باشا إنه كان شهى الحديث حلو الفكاهة إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز . لقد كان النديم يخاطب العواطف وقل أن يأبه للعقل ، وكان أول خطيب مصرى يتقدم إلى ميدان الحرية ويقف ضد ظلم الحكام ويجهر بذلك فى الأماكن العامة يستعرض مقدرته الخطابية فى الجماعات والمجالس الخاصة والعامة ومحاورات العلماء والجهال حتى لقبته بعض الصحف بأنه " خطيب الشرق " و " محامى الوطن " و " محيى الوطنية " وأطلقت على محافله " سوق عكاظ " و " معرض باريس " ، وقد بلغ من سحر حديثه أن أنس به الخديو توفيق وهو من أعنف الثائرين عليه كما أنس به الخديو عباس الثانى أيضًا ، فكان أعظم خطيب مصرى لا فى الثورة العرابية وحدها بل فى القرن التاسع عشر كله ، وكان المقدمة المنطقية لعصر الخطابة الوطنية التى بلغت ذروتها على يد كل من مصطفى كامل وسعد زغلول .

الصحافـة :

بدأ النديم يتصل بسواد الشعب فى محاولة منه لتكوين رأى عام يقف فى وجه الظلم ، ولم يقتصر فى ذلك على الخطابة بل قدم أفكاره أيضًا عن طريق الصحافة فكتب فى صحيفتى " مصر" و"التجارة " متخذًا طريق الإصلاحات الاجتماعية والسياسية مجالاً لمقالاته ، وقد نالت هذه المقالات إعجاب الناس أولاً لأنها كانت جديدة عليهم من ناحية الأسلوب حيث أدرك النديم أن " لغة الصحافة البحتة ينبغى أن تكون غير لغة الأدب البحت كما كانت غريبة عليهم من حيث الأفكار والجرأة فى التعبير عما يجيش فى الصدور حتى إن بعض الصحف سارت على أسلوبه الجديد فى الصحافة . وبعد نفى الأفغانى من مصر وتعيين رياض باشا رئيسًا للنظار فى ٢١ سبتمبر ١٨٧٩ قبض على البلاد بيد من حديد ، وأغلقت بعض الصحف الوطنية ومنها "مصر" و"التجارة " ومع ذلك فقد زاول النديم نشاطه الصحفى بطريقة أكثر فاعلية وتأثيرًا حيث كتب فى جريدتى "المحروسة " و "العصر الجديد" بأسلوب تناول فيه الأحوال السياسية التى تمر بها البلاد بأسلوب رمزى ثم اتجه إلى إنشاء صحيفة تحمل إلى الناس أفكاره ، وتوصل إليهم رسالته واستطاع الحصول على إذن بإصدار جريدة " التنكيت والتبكيت " .

وقد صدر العدد الأول من هذه الجريدة فى ٦ يونيو ١٨٨١ وهى صحيفة وطنية أسبوعية أدبية هزلية . انقسمت الكتابة فيها إلى قسمين قسم للتنكيت بمعنى السخرية من العيوب التى لحقت بالمصريين وقسم للتبكيت بمعنى توبيخهم على ما وصلوا إليه من عيوب فى أسلوب قد يكون لاذعًا ، وقد يكون مضحكًا. وقد نجحت هذه الصحيفة ووصل نداؤها إلى أكبر عدد ممكن ، فمن كان قارئًا قرأ ومن لم يكن سمع ففهم ، حيث برزت قدرة النديم الفذة على الكتابة بالعامية ، فكانت صحيفته مؤثرة فى موضوعاتها وأسلوبها حيث تناولت آفات المجتمع الاجتماعية والسياسية بأسلوب التزم اللغة السهلة البسيطة ، كما احتوت على قوالب متعددة مثل القصص الرمزية والنوادر والزجل والمحاورات والأبحاث الهادفة . وبعد انضمام النديم إلى العرابيين وبعد أن أصبح داعيتهم الأول وأصبحت جريدته هى لسان حالهم طلب منه عرابى تغيير اسم جريدته من " التنكيت والتبكيت " إلى اسم يتناسب مع الظروف التى يمر بها الوطن واقترح عليه أن يكون هذا الاسم هو " لسان الأمة " وأن يكون موضوعها سياسيًا تهذيبيًا للذب عن حقوق الأمة والمدافعة عنها ، وقد أرسل إلى إدارة المطبوعات بخصوص هذا التغيير خطابًا قال فيه : " لدخولنا فى عصر جديد وفوات زمن التنكيت

والتبكيت اقتضى تبديل اسم جريدة التنكيت والتبكيت الأدبية التهذيبية كما استقر الرأى عليه بالممارسة مع حضرة الفاضل عبد الله أفندى نديم محررها ومدير إدارتها باسم "لسان الأمة" ولكن هذا الاسم الجديد الذى أراده عرابى للجريدة لم ينل إعجاب النديم فصدرت تحت اسم "الطائف". وعن أسباب تغيير اسم الجريدة قال النديم : "خلصنا من زمن التنكيت والتبكيت وأصبحنا فى زمن الحرية ومعرفة الحقوق، وهذا الذى قضى علينا بتغيير اسم الجريدة ومشربها فقد صيرناها سياسية ظاهرة بعد أن كنا ندمجها فى محاورات ودروس تهذيبية، وجعلناها تطالب بحقوق الأمة وتدافع عن حقوق الحكومة " كما اعتبر النديم هذه الصحيفة امتداداً للتنكيت والتبكيت فذكر أن الطائف ظهرت فى أول أمرها تحت عنوان التنكيت والتبكيت، ولكننا نرى أن الطائف كانت مختلفة عن التنكيت والتبكيت التى كان يكتب بها مقالات ومحاورات بالعامية بينما لم يوجد فى الطائف مكان لذلك حيث كانت مقالاتها تكتب بالفصحى، وفى حين كانت التنكيت والتبكيت أسبوعية صدرت الطائف فى بعض الأوقات يومية وخصوصاً فى أثناء ازدياد التدخل الأجنبى، كما أن التنكيت والتبكيت اهتمت بصفة خاصة بالإصلاح الاجتماعى بينما اهتمت الطائف بالأحوال السياسية ذات الطابع

الثورى الواضح وإن لم تهمل النواحى الاجتماعية .

وقد احتلت الطائف مكانة مهمة بين الصحف المصرية فى تلك المدة، وقامت بعض الصحف بتقريظها هى وصاحبها فتمنت لها "الأهرام" ولصاحبها التوفيق، كما ذكرت جريدة "العصر الجديد" أن جريدة الطائف "حرة النزعة مستقيمة المبادئ طيبة النشر رقيقة اللفظ دقيقة المعنى محكمة الوضع لطيفة الإشارة" ورحبت صحيفة «الإسكندرية» بصدورها وبمنهجها المفيد الذى يتبعه صاحبها، ووصفتها جريدة «مصر» بأنها موصوفة بالوطنية، وبأنها نافذة الكلام خطيرة مرعية المقام، كما دافع عنها وعن محررها "يعقوب صنوع" فى جريدته "أبو نظارة زرقاء" فقال : "السلام عليك يا سى نديم يا قرة عين قراء جريدة الطائف . الله الله على ذوقك السليم يا حاوى الظرائف واللطائف . أحلف بحب الوطن يا عم . أنى كلما أقرأ جرنالك يزول عنى الهم من حلاوة أقوالك . مقالاتك الأدبية نورت مصرنا ونبذاتك السياسية جددت عصرنا وحياة دقنك يا عزيزى من عشقى فى فصولك الفريدة باترجمها بالفرنساوى والإنجليزى !! كما نصحه فى مقال آخر بقوله : " إن الجرائد هى المرشد للأمة ولا يجوز للمرشد أن يرشد مسترشده إلا إلى طريق الصلاح والإصلاح" . لقد استطاعت صحيفة الطائف أن تصبح

صحيفة الثورة الأولى ، فكانت منذ صدورها لسان العرابيين الرسمى وترجمانهم الصحيح ، لقد برزت مكانه " الطائف فى تلك الفترة حيث إن الصحف جميعها لم تبلغ مكانتها ولا خطرها حيث أصبحت كتاباتها مصدراً موثوقًا به ونقلت عنها الصحف الأخرى مقالاتها الاجتماعية والسياسية ، كما أحرزت من الشهرة ما لم تحرزه صحيفة أخرى ، وأخذت فى الانتشار والتأثير على الأفكار حتى إن بعض قرائها ذكر أن تلاوة الطائف ألذ فى الذوق من أكل القطائف " .

اقتصر النديم فى تحرير هذه الصحيفة أول الأمر على معالجة نواحى النقص الاجتماعية ، ثم انتقل إلى الموضوعات السياسية العميقة والأخبار المهمة التى تميزت بها تلك الحقبة ، ولما كانت انتخابات مجلس النواب على الأبواب قام النديم بحملة دعائية كبيرة لتهيئة أذهان الناس للحياة الدستورية ، فأخذت الطائف على عاتقها توعية المواطنين بأهمية الحياة النيابية ، وضرورة التروى فى انتخاب الأعضاء حتى يقع الاختيار على أناس فيهم المروءة والشهامة والذكاء والمعرفة وحب الوطن فيستطيعون تحمل المسئولية بأمانة . كما شاركت بعض الجرائد الأخرى النديم فى توعية المواطنين وبدأت انتخابات مجلس النواب بطريقة طبيعية وافتتح الخديو المجلس بإلقاء خطبة العرش ، وسارت

حكومة شريف تؤدى وظيفتها بطريقة ديمقراطية ، كما اكتتب النواب فى الطائف بمبالغ كبيرة واختاروها لنشر آراء المجلس وتقاريره ومحاضره ، وقد وافقت إدارة المطبوعات على ذلك ، ونشر ذلك رسميًا بأمر محمود سامى ناظر الداخلية ، وبهذه الصفة الرسمية لجريدة الطائف استطاع النديم أن يكون قريبًا من أخبار الدولة ، وعلى بينة من شئونها ، كما وجد العون المادى والأدبى من الجهات الرسمية ما يعينه على تخطى الصعاب والتقدم . وتطور أسلوبه فى الكتابة والخطابة طبقًا لمواقف العرابيين . وتمضى الثورة من نصر إلى نصر ، والعرابيون فى مقدمتها يجنون ثمارها والصحف فى أغلبها موالية لهم ، وإن لم يكن هناك صحيفة أكثر ثورية من الطائف التى أصبحت لسانًا عنيفًا يكتب صاحبها بلغة سافرة لا يخشى سلطانًا ، ولا يأبه بأمير فكتب عن حياة الخديو مقالاً بأسلوب فيه الكثير من التشفى ناسبًا إليه ما حل بالبلاد من مصائب فى أسلوب عنيف خرج فيه عن أدب المناظرة وتكلم عن بؤس الفلاحين والعذاب الذى يلاقونه فى أثناء جباية الضرائب ، وربما لجأ النديم إلى هذه الموضوعات ليوضح أن طلب الثوار للحكم النيابى هو ضمان للعدالة والقضاء على الاستبداد وعهوده ، وبلغ من كراهية النديم للخديو إسماعيل أنه كتب لقرائه وهو على سرير المرض يعتذر عن تحرير

صحيفته "إلا ما كان من تاريخ حضرة إسماعيل باشا فإنى أتكلف بكتابته لأن نشره من ضمن علاج ما بى "، وقد أدى عنف هذه المقالات وشدة تأثيرها إلى أن أمر رئيس قلم المطبوعات وكان وقتئذ الشيخ محمد عبده بوقف هذه الجريدة لمدة شهر، وذلك طبقا لقانون المطبوعات الصادر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ حيث إنها لم ترع أدب المناظرة، ورغم ذلك فإن النديم استمر فى مهاجمة الخديو إسماعيل ثم شن حملة قاسية على الخديو توفيق بهدف الإطاحة بعرشه، كما وقف مؤيدًا للحياة النيابية والدستور.

ولما قامت الحرب بين العرابيين والإنجليز أصدر النديم "الطائف" من ميدان القتال وحولها من جريدة أسبوعية إلى جريدة يومية تدعو إلى الحرب وتستنفر الشعب إلى القتال وتحرض الجنود على الاستبسال وتلهب مشاعرهم فكتب مقالات أقرب إلى الخطب منها إلى المقالات الصحفية دعا فيها الشعب إلى النضال من أجل الوطن فقال: "يا بنى مصر.. هذه أيام الذود عن الحياض. هذه أيام يمتطى فيها بنو مصر صهوات الحماسة وغوارب الشجاعة لمحاربة عدو مصر. وكان كلما اشتد الأمر اشتد النديم فى تحمسه فكان بحق ترمومتر الأحداث فخرجت مقالاته لاستثارة الهمم والطعن فى الخديو وإنجلترا، وعن صحيفته نقلت صحف القاهرة أخبار الحرب وتفاصيلها

فضلاً عن مقالات محررها كاملة أو ملخصة تلخيصًا وافيًا ، حيث كانت ممنوعة من نشر أى شىء فيما يختص بالأحوال الحاضرة دون موافقة المجلس العرفى ، وكانت القيادة العسكرية توافيها بصور من التلغرافات الحربية مما زاد من أهميتها . ولم يقتصر نشاطه الصحفى على المقالات والأخبار وتنقلات الجيش ، وخطورة استعداده والدعاية له ، بل واجه الصحف التى استمالها الخديو لتقف بجانبه ضد عرابى فهاجمها بأسلوب عنيف وأنشأ ملاحق لصحيفته ، ووقف قلمه فى كل ملحق منها على خصم من خصومه سواء أكان هذا الخصم الخديو توفيق أم واحدًا من أصدقائه أو معاونيه ، وقد ازدحمت هذه الملاحق بالهجاء الشديد والأسلوب العنيف ، ولما كان النديم على دراية تامة بحساسية أبناء وطنه من ناحية الشرف والعرض والدين فقد ضغط على هذه الأوتار الحساسة ونجح فى ذلك حيث أطلق على الخديو وأعوانه والإنجليز الشائعات التى تمس هذا الشعور فكان بارعًا فى إدارته للحرب النفسية ، فخرج الناس يتغنون بذم الخديو والإنجليز ومن ذلك قولهم :

يا توفيق يا وش النمله

مين قال لك تعمل دى العمله

يا عزيز يا عزيز

كبه تاخد الإنجليز

ومن ناحية أخبار المعارك فقد كان النديم يصفها بالطريقة التى لا يفقد بها الشعب ثقته فى جيشه فكان أحيانًا يقلل من الهزائم وأحيانًا أخرى يقتصر على نشر التلغرافات الرسمية دون تعليق، أما إذا ظهرت بوادر انتصار للعرابيين فكان يهلل ويبالغ ويصف المعارك بيوم الملحمة.

وعلى الرغم من أن الطائف لم تصف المعارك بصدق فقد كانت سلاحًا فعالاً عبأ الشعب للقتال، وبث روح الشجاعة فى الجند، وأن ما فعله النديم كثيراً ما حدث مثيله فى الحروب الحديثة، والمثال على ذلك ما ذكره "مونتجومرى" فى مذكراته من أنه لم يقل دائمًا الحقيقة فى أثناء الحرب حتى لا يتعرض سير العمليات للخطر .

ومع ذلك فنحن نرى أن سلاح الدعاية دائمًا ما يكون ذا حدين، فهو من ناحية يعبئ النفوس للقتال، ويقوى روح الشعب المعنوية، ومن ناحية أخرى يحجب حقيقة الموقف عنه مما يكون له نتائج غير طيبة وخصوصًا عند الهزيمة .

لقد كانت كتابات النديم فى "الطائف" خير تعبير عما كان يجيش فى صدور الناس من كراهية للخديوى وللأجانب. أما عن مجلة الأستاذ التى ظهرت عقب عفو الخديو عباس الثانى

عن النديم فقد صدر العدد الأول منها فى ٢٣ أغسطس ١٨٩٢ وكانت أسبوعية جعل النديم الكتابة فيها على ثلاثة مستويات فكانت بمثابة مدرسة يتعلم فيها فئات الشعب كافة متعلمها ومتوسطها وجاهلها . وقسمها كالآتى :

١) مقالات علمية وطنية بأسلوب رصين كتبت للمثقفين من القراء وقصد بها أن تكون امتدادًا لمجلة العروة الوثقى .

٢) مقالات بأسلوب مبسط كتبت لأنصاف المتعلمين وتلاميذ المدارس وهى قريبة إلى العامية ، وتحتوى على دروس للتلاميذ ترمى إلى تهذيب الأخلاق وتوسيع المدارك .

٣) مقالات ومحاورات باللغة العامية التى يعرفها غالبية الشعب لتوضيح الأمور لهم فى شكل حوارى بين أحد أبناء البلد أو بناتها والنديم ، بهدف تهذيبهم وإظهار عيوبهم وترقية أفكارهم ، وقد صور النديم فى هذه المحاورات أدواء المجتمع ، ووصف لها الدواء . مثال ذلك محاربته للعادات السيئة مثل شرب الخمر فى المحاورة التى كتبت تحت عنوان "حنيفة ولطيفة" أو محاورة النديم عن أهمية التعليم وضرورة العناية بالنظافة تحت عنوان "نديم وحافظ" ، أو حديثه عن العدالة الاجتماعية تحت عنوان "سعيد وبخيته" .

لقد أدرك النديم أن تهذيب الشعب وإصلاح عيوبه هو

الخطوة الأولى فى سبيل النهضة والتقدم، فنقده كمصلح اجتماعى يهدف إلى الإصلاح فكان رد فعل كتاباته فى الأعداد الأولى من الأستاذ التأثير الكبير لدى أفكار الأمة على مختلف نحلها . انتشرت مجلة الأستاذ انتشاراً فاق ما كان متوقعًا حتى أصبحت أوسع الجرائد الوطنية انتشاراً، فقد كان يطبع منها ثلاثة آلاف نسخة كأكبر جريدة يومية فى ذلك الوقت مع أن عمرها لم يطل أكثر من عشرة أشهر، فكان العامى يشتريها وهو لا يعرف القراءة ثم يعطيها لقارئ يقرؤها له، وقد حاول النديم مرة أن يحررها كلها بالفصحى فأتته رسائل احتجاج كثيرة تطالبه بالعدول عن ذلك والرجوع إلى كتابة بعض الفصول بالعامية " لينتفع بها النساء والأطفال والعامة، لأن فصوله التهذيبية فعلت فى نفوس العامة والخاصة ما لم تفعله الخطبة ولا الوعظ، كما أن فصوله العامية نبهت كثيرًا من الأفكار لمطالعة الجرائد السياسية والعلمية "، ونظرًا إلى احتجاجات الكثير من الناس ومطالبتهم للنديم بأن يخصص لهم بعض الفصول بالعامية نزل على رأيهم فأعاد جريدته كما كانت فصيحة وعامية معًا .

والجدير بالذكر أن النديم لم ينتقد فى أوائل أعداد مجلته الاحتلال علانية بل كان ذلك من طرف خفى حتى وقعت أزمة الانقلاب الوزارى فى يناير ١٨٩٣ فكانت هذه الحادثة بمثابة الحد

الفاصل بين حذر النديم فى كتاباته فى الميدان السياسى ومناصرة الحركة الوطنية ومؤازرة الخديو عباس الثانى وإثارة العواطف القومية ضد الاحتلال، وبدا ذلك واضحًا فى مقاله الطويل الشديد اللهجة الصادر فى ١٧ يناير ١٨٩٣ تحت عنوان "لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا"، فقد وضح النديم فى هذا المقال ما حدث فى البلاد من تغيرات اجتماعية وسياسية نتيجة للتغلغل الأجنبى والاحتلال الإنجليزى، فكتب عن أساليب الاستعمار ووصف حالة الغرب وحالة الشرق وندد بجشع الغربيين ومحاولتهم إفساد قيم وأخلاق الشرقيين كما ندد بغفلة الشرقيين واستكانتهم ودعا إلى الالتفاف حول الخديو .

بدأ النديم هذا المقال بتوضيح أسباب اختياره لعبارة "لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا" كعنوان لموضوع مقاله فقال إن أوربا كانت توجه هذه الكلمات دائمًا إلى الشرقيين كلما حاولت تبرير أفعالها، لذلك قسم المقال إلى فقرات كل فقرة يبدؤها بعرض ادعاء من ادعاءات الأوربيين سواء فى محاولاتهم الانتقاص من قدر الشرقيين أو فى سعيهم لتحقيق مصالحهم الاجتماعية والسياسية ثم يرد على كل ادعاء بالحجج والأسانيد الواضحة ويختم كل فقرة بعبارة "لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا" تحدث النديم فى الفقرة الأولى من مقاله عن ادعاءات الأوربيين بجهل

الشرقيين فى الصناعة حتى يتمكنوا من إدخال مصنوعاتهم إلى الشرق فقال : " قالت أوربا إنكم متوحشون لكونكم لا تحسنون صناعة الأثاث واللباس وإنكم فى حاجة إلى مصنوعنا ولا تصلون إليه إلا بعقد المعاهدات التجارية ، وبذا تمكنت من إدخال مصنوعها فى الشرق لتحول الثروة إليها فأماتت ما كان يصنعه الشرقيون" . ثم رد على هذا الادعاء بحث أبناء وطنه على إحياء الصناعة الوطنية وتوضيح الطريق لحماية مصنوعاتهم أمام المنافسة الأوربية بقوله : " إن كثيراً من الممالك التى لا آلات فيها استعانت بآلات اشترتها من الغير وأحيت صناعتها الوطنية ، وحتمت على أهلها شراءها لرواج صانعيها ومنعت دخول مصنوع الغير حفظًا لثروة أهلها" . ثم ندد بضعفاء العقول الذين لا يتحركون للعمل من أجل إحياء الصناعة الوطنية "لوقوعهم فى اليأس والقنوط بالمغريات ، ورجال أوربا تتعجب من تقاعدهم وتقول لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا" . وفى الفقرة الثانية من المقال تحدث النديم عن محاولات الأوربيين جر الشرقيين إلى مهاوى الرذيلة ، وإبعادهم عن حياتهم الشرقية ، وأخلاق الآباء والأجداد فقال : "قالت أوربا إن وقوفكم عند عاداتكم الشرقية وتخلقكم بأخلاق آبائكم بقاء على الهمجية والتوحش فلا بد من مجاراتنا فى حركاتنا المدنية لتساوونا فى الرتبة وفتحت لنا

البير والخمارات والمقامر وأباحت الزنا والربا ووسعت دائرة اللهو والخسران ففعل الشرقيون رغم ما وراء ذلك من ضياع الدين والملك والمجد والشرف" . وقد هاجم النديم الإنجليز لاتخاذهم المدنية الحديثة ستاراً لنشر الموبقات فى الشرق فقال : " إن الإنجليز هم الذين نشروا قانون المومسات ورخصوا للنساء أن يخرجن للبغاء تحت حماية القانون ، وهم الذين سنوا كشف الأطباء على البغايا وإعطاءهن شهادات بأنهن صالحات للزنا فهتكوا حرمة القرآن والإنجيل والتوراة " . ثم قام بتحذير أبناء وطنه من مغبة ما يحدث موضحًا لهم أن هدف أوربا من ذلك هو إفساد الأخلاق وإتلاف العقول والأجسام وضياع الدين والبلاد فقال : " وإنما هذا أشراك وفخاخ تنصب فى طريق الشرقى حتى لا يخطو خطوة وقد وقع فى حبالة أوربا .

ولما رأت أوربا أن الشرقيين لا ينتبهون من غفلتهم ، ولا يسعون فى صالح بلادهم ولا يحافظون على دينهم ولا يعرفون شرف لغاتهم ، ولا يحفظون كراسى ملوكهم ولا يهمهم ضياع أوطانهم اتخذتهم كرة تلعب بهم كيف تشاء وهى تقول لهم : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا " . وفى الفقرة الثالثة من المقال تحدث النديم عن ادعاءات الأوربيين بأن الشرق فى حاجة إليهم حتى يتمكن من إصلاح شئونه فقال : " قالت أوربا إن الشرق فى

حاجة إلى تدخل أوربا لإصلاح إدارته وماليته وتجارته، وتهذيب أممه بالتعاليم الأوربية وأجمع رجال أوربا على جعله قسماً مقابلاً لها، وربطوا عزمهم على ضمه إليهم الجزء بعد الجزء، والقطعة بعد القطعة على اتفاق معقود بين الدول هذا لى وهذا لك . وقد رد النديم على ذلك مناشداً أولى الأمر بضرورة الاهتمام بالرجال فقال: "لو اهتم ولاة الأمور بالرجال ومرنوهم على الأعمال وبعثوا فيهم روح الحمية بالمحافظة على حقوقهم وترقيهم بحسب استعدادهم وساعدوهم على انتشار الصناعة والتجارة وهذبوهم بالأدبيات، وصانوهم من المفاسد العقلية وعلموهم العقائد الدينية وعودوهم على الشعائر العلمية ونبهوهم بجرائد وطنية صادقة اللهجة صافية النية . . لوجدوا أمامهم رجالاً وأى رجال ولكنهم أهملوا ممالكهم وأهدروا حقوق رعاياهم فأصبح ملوك أوربا يفخرون عليهم ويعيرونهم بما صاروا إليه من الضعف والاضمحلال ويقولون : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا" .

وفى الفقرة الرابعة من المقال تحدث النديم عن سعى الأوربيين لتحقيق مصالحهم بينما الشرقيون لا يتحركون لمجاراتهم فقال : " إنهم يسعون فى مصالحهم واتساع ممالكهم وتجارتهم والشرقيون ينظرون إليهم نظر المغشى عليه من الموت ولا يتحركون لمجاراتهم أو لإيقاف تيار تداخلهم" . ثم انتقل للدفاع عن الدولة العثمانية

بوصفها زعيمة العالم الإسلامى والمدافعة عنه فوصفها بقوة العزيمة وهاجم الذين يرمونها بالعجز والضعف ثم حض مواطنيه على عدم التهاون فى حق الوطن محذراً لهم من محاولات الأوربيين السيطرة عليه فقال : " ولقد أذهلتنا أعمال أوربا التى لم تسمح لشرقى بامتلاك شبر من أراضيها ، وهى تخرجنا من مساكننا وتقيم فيها بلا شروط معقودة ولا حجة مسجلة ، ولكنها معذورة فإنها لم تجد من يعارضها أو يجاريها فهى لا تعترف أننا معها فى ثوب الإنسانية بل تقول : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا " .

وفى الفقرة الخامسة من المقال كشف النديم النقاب عن الأساليب التى يستخدمها الأوربيون للتدخل فى شئون الشرقيين بحجة الإصلاح ونشر الحضارة والمدنية وتدريب الشرقيين على إدارة شئونهم فقال : "إن دولة من دول أوربا لم تدخل بلداً شرقيا باسم الاستيلاء ، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية ، وتنادى أول دخولها أنها لا تتعرض للدين ولا للعوائد ثم تأخذ فى تغيير الاثنين شيئًا فشيئًا " ، ثم ذكر أن هدف إنجلترا من إطلاق حرية المطبوعات هو إيجاد التناقضات بين الشعب المصرى .

كما تحدث عن تفضيل الإنجليز للأجانب على المصريين فى الأعمال كافة فقال : " هم الذين أبعدوا المصريين عن الخدمة وحشروا الغرباء فى المصالح حتى أصبح الألوف من المصريين لا

يجدون القوت" . وهاجم محاولات الإنجليز إماتة اللغة العربية فقال : " هم الذين تدرجوا لإماتة اللغة الوطنية بفرض المكافآت لمن ينبغ فى الإنكليزية لتُنْسَى لغة القرآن فُيُنْسَىَ بها الدين . " ثم طالب أبناء وطنه بمجاورة الإنجليز وكافة الأوربيين فى أعمالهم فقال : " وما يدعوهم الأستاذ إلا إلى مجاورة الأوربيين فيما هم فيه من معرفة قدر نفوسهم والمحافظة على حقوقهم ولغاتهم وأديانهم وعوائدهم والدأب خلف الاستقلال" . كما طالبهم بالعمل الجاد والاجتهاد ، وترك التكاسل والتقاعد فقال : "مضت والله أيام التقاعد والاغترار بالترهات وصرنا بين يدى خديوى يريد أن نجارى الإنكليز فى الأعمال الإصلاحية والمطالبة بحقوقنا الوطنية ونحن عن إرادته السنية ساهون . ويجب أن نتقدم فى التجارة والصناعة والزراعة والمعارف ونقبض على أزمّة أمورنا ونحفظ عرشه المصرى بالمصريين" .

ثم قرظ الخديو عباس حلمى ولقَّبه بالهمام الحازم الصادق الوطنية المحب لجميع أجناس رعيته على اختلاف أديانهم الساعى فى منح الوطنيين حقوقهم وتمتعهم بخصائصهم الإدارية وما يحتاج فى تنفيذ إدارته إلا إلى رجال " ، ثم قال : فأى مانع يمنع المصريين من المطالبة بحقوقهم بالتظاهرات الأدبية؟ ! أصرنا أقل درجة من فَعَلة الإنكليز والغزالين الذين تعصبوا لحقوقهم

وتجمعوا لراحتهم وأذهلوا العالم بأفعالهم التى ما دخلها شغب ولا تخللها خلل؟!".

ثم حذر من المرجفين الذين يبثون الشائعات فقال: "تعودنا سماع الأراجيف من الدخلاء وتسليط الأوربيين على كل بلد نودى فيه بالمحافظة على وطنيته، ونحن نضع حجراً فى فم هذا الدخيل قبل أن يحرك شفتيه بكلمة إغراء".

وتحدث النديم عن الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط فقال: "هم فى اختلاط أهل بيت ومعاملة عشيرة واتحاد عائلة، ما جرى بينهم يوماً واقعة عدوانية مسببة عن اختلاف الدين، ولهذا لم تجد دولة من الدول العدوانية علة دينية تتداخل بها فى شأن مصر باسم راحة المسيحى والمحافظة على المعابد المقدسة وأعطاء الأقباط حريتهم فى عوائدهم الدينية بل كان ائتلاف المسلمين بهم حجاباً بين مصر وبين تلك الدعوة التى تعودتها أوربا تغريراً وتضليلاً وفتحاً لباب الحروب بعلل وهمية". ثم ناشد أبناء وطنه تقليد عقلاء أوربا فى أفعالهم وعدم اللواذ بالاجنبى الذى سلبكم ثوب المجد، وليبقَ إلا أن يأكل لحمكم ويشرب دمكم غيظاً". كما طالب النديم بتحريك الهمم وزيادة النشاط للإكثار من الثروة فقال: "أيكفينا من الثروة أن نرى أكبر تاجر منا لا تزيد ماليته عن عشرين ألف جنيه وإذا عددنا هذا

القسم قلنا واحد اثنين فإذا انتهينا إلى التاسع وقفت بنا الأعداد، أما تتحرك الهمم الخامدة لفتح محال التجارة شركات وطنية تُجمع من سهام قليلة فتربح كثيراً وتفتح بيوتا أغلقت أبوابها أو كادت، أعجزنا عن مجاراة الأمم حتى فى هذا العمل الذى يقوم به الأميون والجهلاء الذين تبعثهم ضرورة المعاش إلى اتخاذ طرق الاتجار والاتحاد ؟" .

ثم تحدث عن التعليم والمنهج الدراسى الصحيح الذى يجب أن يدرس للتلاميذ فقال مناشداً الآباء: "لقنوهم ما أنتم عليه من الدين قبل أن يخالفوكم. حفظوهم تاريخ بلادكم وأجدادكم قبل أن يجهلوكم. ردوهم إلى الوطنية قبل أن يحملوا سلاح العداوة"، وانتقد الآباء الذى يرسلون أبناءهم إلى المدارس الأجنبية وناشد ولاة الأمور بفتح المدارس بقوله : " أفلا يحسن فى أعينكم أن تفتحوا مدارس لأبنائكم تهذبونهم فيها وتعلمونهم وتحولون بينهم وبين الوجهة الأوربية تغرسها ببلادنا مدارس أوروبا". ثم ناشد أبناء وطنه لتوحيد كلمتهم وخدمة وطنهم فقال: "جاهدوا أنفسكم فى توحيد كلمتكم وارجعوا بمحافلكم عن أبواب أوربا وفتنتها ، واخدموا بلادكم بظهوركم أمة واحدة واقفة على قدم الخدمة لأميرها والمحافظة على حقوقها".

تحدث النديم عن محاولات الاحتلال التفرقة بين السوريين الموجودين بمصر والمصريين ودعا إلى اجتماع الكلمة والائتلاف فقال : " ولو اجتمعت كلمتنا وائتلفت نفوسنا وصفت بواطننا وصرفنا هذه الهمم فى حفظ الوطنيين وإعلاء كلمة الجنسين لحسدتنا المعالى ووقفت أوربا تنتظرنا بعين الإعظام والإجلال " .
كما قال : " إذا شددنا أزر بعضنا وجمعنا الكلمة الشرقية مصرية وشامية وعربية وتركية أمكننا أن نقول لأوربا نحن وأنتم ، وإن بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالأجانب فريقًا بعد فريق حق لأوربا أن تطردنا من بلادنا إلى رءوس الجبال لتحلقنا بالبهيم الوحشى وتصدق فى قولها لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا" .

هكذا عرض النديم آراءه فى هذا المقال بطريقة واقعية وجريئة ، واقعية لأنها عبرت عن سوء أحوال البلاد وما ألمَّ بها فى ظل الاحتلال ، وجريئة حيث إن النديم لم يخش أحدًا حيث تكلم بصراحة ، وعبَّر عما سمعه وشاهده بنفسه فى أسلوب متأجج بالحرص على الوطن والحماسة له ، وكان حديثه بلغة عربية فصيحة لأن الموضوعات التى طرحها فى مقاله كانت تتميز بالنوع الجدى الذى لا تلائمه إلا اللغة الفصحى ، كما تطرق إلى موضوعات متعددة فعرضها بطريقة موضوعية فخرج المقال متماسكًا ومعبراً عما يجيش فى نفوس أبناء وطنه حيث كان

صدى لما يعانيه الشعب من آلام، وصدى لما يحدث فى البلاد من أزمات فأثبت النديم أنه يحمل بين جنبيه نفسًا أقوى من الكوارث وعزيمة لا يوهنها الفشل .

وإلى جانب ما كتبه النديم من مقالات فى الأستاذ فقد أفسح المجال للكثير من كُتاب وشعراء تلك الحقبة بالكتابة فى مجلته مما أشاع نهضة كبرى فى الأوساط الأدبية تسببت فى إثارة جماهيرية كبيرة .

ولما أحس كرومر بخطورة مقالات الأستاذ رأى ضرورة إسكات صاحبها حتى لا تحدث ثورة أخرى فى البلاد، فخرج آخر عدد من الأستاذ فى ١٨٩٣/٦/١٣ وهو العدد الثانى والأربعون فانتهت بذلك حياة الصحيفة كما أرسل صاحبها إلى منفاه فى يافا .

العمل المسرحى :

عرَّف النديم فن التمثيل بأنه "فن بديع يقوم على التهذيب وتوسيع أفكار الأمم وإخبارهم عن الوقائع التاريخية والتخيلات الأدبية مقام أستاذ وقف أمام تلامذته يلقنهم العلم بما تألفه نفوسهم وتميل إليه طباعهم"، وقد رجع هذا الفن إلى العرب منذ القدم ثم نقله عنهم الأوربيون عند مخالطتهم لهم فى الأندلس والشام .

والجدير بالذكر أن العرب لم يعرفوا فن المسرح والتمثيل منذ القدم كما يذكر النديم، وربما قصد بذلك المنشدين والمغنين أو رواية ابن دانيال الموصلى المسماة "طيف الخيال" التى هى من قبيل ما يسميه المصريون "خيال الظل" والسوريون "كركوز"، وليست من قبيل التمثيل، والذى يؤكد ذلك أن رواية "ابن دانيال الموصلى" بها الكثير من المجون والخلاعة والألفاظ البذيئة، والنديم يذكر أن الأوربيين هذبوا هذا الفن بعد أن أخذوه من العرب بقوله: "ولكنهم هذبوه على تمثيل الوقائع الشهيرة التى لها وقع فى التهذيب والتأديب، وكتبوا فيه الروايات الكثيرة بين حاصلة ومصوَّرة".

وعموما فإن نظرية النديم فى تاريخ الحضارة الأوربية هى النظرية التقليدية التى تعيد كل شيء إلى أصول عربية، واعتبار الشرق معلِّم أوربا وإليه يرجع الفضل فى نهضتها فى حين أن فن التمثيل يعتبر جديدًا على الحياة المصرية، فلم نتوارثه عن الفراعنة ولا عن العرب بل إن مجتمعنا المصرى لم يعرف الأدب المسرحى إلا بعد أن اتصلت مصر بوسائل الغرب الحضارية اتصالاً وثيقًا.

ذكر النديم أن الأوربيين بعد أن هذبوا هذا الفن المسرحى نقله عنهم بعض الشرقيين فقال: "وقد أخذه الآن بصورته الأخيرة

جماعة من الشرقيين منهم من أحسنه ، ومنهم من بقى تحت التمرين ، فكان من المحسنين الفريق(الجوق) الشرقى المكون من المجيد الماهر الشيخ سلامة حجازى معه المحسن أحمد أفندى أبو العدل والمتقن حسن أفندى الأنبابى وجماعة من الشرقيين يصحبهم ثلاث مشخصات شرقيات " .

ومع أن النديم لم يكن يجيد أى لغة أجنبية يستطيع بها الاطلاع على نصوص المسرحيات الأوربية فإنه استطاع أن يكتسب قدراً من الثقافة المسرحية عن طريق مشاهدته لمسرحيات " يعقوب صنوع " الذى ظل مسرحه "يعمل سنتين عرض فيهما على خشبته اثنتين وثلاثين تمثيلية من تأليفه ، إلى جانب كثير من التمثيليات التى تُرجمت عن الفرنسية ، كما تأثر أيضًا بالمسرح عن طريق الفرق المسرحية التى وفدت من الشام إلى مصر وخصوصا فرقة " سليم النقاش "وأديب إسحق" التى مثلت العديد من المسرحيات على "مسرح زيزينيا" . كتب النديم روايتين قدمهما للمسرح وهما رواية "الوطن وطالع التوفيق" و"النعمان" وقد قال عنهما ، ألفت "رواية الوطن" وبينت فيها ما ظهر وما بطن ، مما هو جار فى البلاد من الظلم والفساد . ثم ألفت "رواية النعمان" وملأتها بالبديع والبيان ، وبينت فيها فضل العرب ، وما أتوه من العجب .

ولم يوجد بين أيدينا من هاتين المسرحيتين سوى فقرات من رواية الوطن منشورة ضمن منتخبات عبد الله النديم التى جمعها شقيقه عبد الفتاح النديم تحت عنوان "سلافه النديم"، وقد كتب النديم هذه الرواية بالعامية والفصحى معًا حيث جعل كل شخصية تتحدث باللغة التى تناسبها، وكان الهدف منها هو " حث أبناء الوطن على النهوض من وهدة الحضيض إلى أوج التقدم، ورسم صورة ناطقة للمجتمع المصرى الذى أفقده الاستبداد إرادته وأماتت المصائب المتراكمة إحساسه فصور الوطنى بشخصية رمزية تنادى بالتعاون بين جميع المصريين، كما اختار شخوصا من سكان القرى وبعضها الآخر من سكان المدن ومنها من هو من فلاحى الأرض أو الصيادين أو الجهلة مثل أبو دعموم وأبو الزلفى والحاج حسين وأبو العلا والسيد على والسيد إبراهيم والحاج رزيجة وأبو رجب وعزت أفندى ومظهر وبدر وعامر وسلمى ودعد ومى والحطيئة والنابغة والعرب . وكان الشكل الحوارى لهذه الرواية عبارة عن الدعوة إلى تطوير المجتمع وما يسوده من أخلاق وعادات، فصور النديم الظلم الواقع على الفقراء وانتقد أسلوب رجال الحكومة فى جمع الأموال، وانتشار الرشوة بينهم، وأوضح للفقراء أن الإصلاح لا يكون إلا بالاتحاد وإنشاء الكتاتيب ليتعلم أولادهم فتنتشر المعارف وتعرف

الحقوق ، وانتقد ما يردده البعض من أنه لا يذهب إلى المدارس إلا الأولاد المصابون بعاهة فى أبصارهم أو فقدوا أحد أطرافهم حتى يرتزقوا من قراءة القرآن على الأضرحة وفى المقابر ، كما طالب النديم الفقراء بالإسهام فى إنشاء الجمعيات ، وذكرهم بأنهم أصل كل شيء ، وصور الأغنياء بالبخلاء الذين لا يعرفون حق الوطن كما صور رجال الحكومة بالمفسدين وامتدح الخديو فى نهاية الرواية ووضع الأمل على يديه للإكثار من إنشاء المدارس . ومع أن هذه الرواية تنقصها الحبكة الفنية فإنه يمكن القول بأن النديم اتخذ من المسرح وسيلة حاول أن يوصل من خلالها إلى الشعب رسالته ويلقنه عن طريقها المبادئ الوطنية والاجتماعية .

وتبدأ الرواية بحوار يدور بين رجلين يشكوان سوء الحال على النحو التالى :

ابو دعموم : كانت فين دى الغيبة ؟

أبو الزلفى : فى جهنم الحمره

أبو دعموم : ليه من غير شر ما أنت بخير .

أبو الزلفى : ما بار علينا ما بخير ولا .

أبو دعموم : إيه بس ما تقلش نصيبتك إيه .

أبو الزلفى : يبقى ما أنت شايف الطوافة نازلين علينا

بالشمريخ ومشايخ البلد نازلين علينا بالصرم وحاكم الخط مشرمطنا بالكرميش والمدير مكسرنا بالنبابيت لا هو الواحد بقا حديد ولا إيه .

أبو دعموم : يا دم يلهفك يا خى يبقى ما ترميش للكلب منهم بريزيه وتخلص .

أبو الزلفى : عوار يحول عينك هى كام بريزيه داللى بيطلبوه الصبح ما بيطلبهش المغرب .

ومن النص المسرحى لهذه الرواية يتضح أن النديم أنطق شخوص مسرحيته بما يتناسب مع الطبقة التى ينتمون إليها فتحدث الفلاح بلهجة أهل الريف " يبقى ما أنت شايف الطوافة نازلين علينا بالشمريخ ومشايخ البلد نازلين علينا بالصرم . . "والصياد يستعمل لهجة أهل السواحل " هى كام بريزيه" وأجرى على لسان المتعلم لغة فصحى قريبة من العامية " تعلمت شيئًا كثيرًا " كما جعل حديث الشباب من المتفرنجين بلغة ممتزجة بلغة أجنبية " بنجور يا مسيو مظهر" ، " بنجور عليك يا منشير عزت " ثم جعل الوطن يتحدث بلغة عربية فصحى ، كما خص سكان البادية بالشعر العربى الفصيح .

وبذلك استطاع النديم أن يحقق نوعًا من الواقعية فى نصه المسرحى . وقد مثل تلاميذ النديم تحت إشرافه هذه الرواية على

مسرح زيزينيا أكبر مسارح الإسكندرية فى ذلك الوقت فى حضور الخديو توفيق وكبار رجال الدولة فكان لها فى النفوس أثر كبير بعد أن نبهت الأذهان إلى العيوب الاجتماعية والسياسية فى المجتمع المصرى وما يتحمله الأهالى من المظالم والمغارم . ومع أن النديم مدح فيها الخديو فى النهاية فقد كانت تبرز الظلم الواقع على كواهل الناس وتحارب الدكتاتورية والحكم المستبد والاستسلام للأجنبى المسيطر على الأجهزة الحكومية .

وبما أن الكتابة للمسرح تحتاج إلى خبرة ودراية لا تتوافران لغير المنقطع لهذا الفن يدرسه ويروض نفسه عليه فإن للنديم العذر فى عدم إجادته فيما كتبه للمسرح ، فروايته مزدحمة بالكثير من الشخصيات ، وقارئها لا يعرف متى دخلت هذه الشخصيات إلى المسرح ومتى خرجت ، ومع ذلك فإن استعماله للسخرية اللاذعة بقصد علاج النقائص الاجتماعية ومدى انتشار الرشوة بين رجال الحكومة كان له أكبر الأثر فى النفوس .

ويذكر البعض أن مسرحيات النديم جاءت فى صورة عظات وخطب ، وكان من الأجدر لمؤلفى هذه الحقبة أن يتذكروا أن وظيفة المسرح هى الترفيه والترويح عن النفس قبل كل شىء ، أما الخطب الرنانة والعظات القيمة فمجالها المنابر ودور العبادة .

ولكننا نرى أن الظروف التى مرت بها البلاد فى تلك الحقبة

جعلت من المسرح صدى للأحداث القائمة ، وحتمت على رجل مثل النديم أن يساير هذه الأحداث بل يطوع مسرحه لخدمة الحركة الوطنية مع التركيز على القاعدة الشعبية .

وهكذا استعمل النديم كافة الوسائل لتنبيه أبناء وطنه ، وإنقاذهم مما ترددوا فيه ، وكان المسرح ضمن وسائله وكانت مسرحيته " الوطن وطالع التوفيق " صدى قويا وصادقا لما ألم بالمجتمع المصرى من مساوئ اجتماعية وسياسية .

ومما سبق يتضح أن النديم قد تأثر بالنهضة المسرحية التى بدأها يعقوب صنوع ، ثم نقل خبرته إلى الجيل الجديد الذى حمل الراية بعد انتكاسة الثورة العرابية والمتمثل فى مصطفى كامل .

قائمة بأهم المصادر والمراجع

أولا : وثائق غير منشورة :
١-دار الوثائق القومية :
- أوراق خاصة بالسيد جمال الدين الأفغانى .
- أوراق الحضرة الخديوية بصدد الثورة العرابية والبرقيات التى ضبطت لدى المتهمين .
- ديوان المعية السنية عربى
- محافظ الثورة العرابية .
- محافظ مجلس النظار .
- محافظ مجلس النواب .
- محافظ مجلس الوزراء - نظارة الداخلية .

ثانياً : دار المحفوظات العمومية :
- ملفات خدمة وأذون ربط المعاشات :
١ - (ملف عبد الله أفندى نديم)
٢ - (ملف الشيخ محمد عبده)
- محافظ الداخلية ، محفظة رقم ٦ ، ٤٤

ثانيا : الوثائق البريطانية :
Public Record Office , Fo: 407- 18.

ثالثا : المخطوطات :
- تقرير عن الحوادث التى حصلت فى مصر من تاريخ يناير ١٨٨١ لغاية أكتوبر ١٨٨٢ .
- أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية

المشهورة بالثورة العرابية ١٢٩٨ و ١٢٩٩هـ الموافق ١٨٨١ - ١٨٨٢ .
- مذكرات محمد فريد - تاريخ مصر من ابتداء ١٨٩١ القسم الأول - الجزء الرابع .

رابعا : المصادر والمراجع العربية :

- أحمد تيمور : تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر ، القاهرة ١٩٤٠م .
- أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، الجزء الأول ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٤ .
- إلياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديو إسماعيل باشا ١٨٦٣ - ١٨٧٩ المجلد الثانى ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٣ .
- أحمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٥ .
- إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، جـ٢ ، القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٣١٤هـ .
- عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٤٩ .
- عبد المنعم الجميعى :
- الثورة العرابية فى ضوء الوثائق المصرية ، القاهرة ، مركز الدراسات السياسية بالأهرام .
- الثورة العرابية بحوث ودراسات وثائقية ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعى ، ١٩٨٢ .
- عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعى ، ١٩٨٠ .
- محمد أحمد خلف الله : عبد الله النديم ومذكراته السياسية ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٥٦ .
- محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ، جـ١ ،

القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥٢ .

خامسا: المصادر والمراجع الأجنبية:

١- Blunt , W, S.: Secret History of the English Occupation of Egypt , London , 1907.

2- Broadley A.M: How we Defended Arabi and his friends, A story of Egypt and the Egyptians , London , 1884.

3- Cromer, Earl of : Modern Egypt, Vol. 1, London, 1908.

4- Colvin A.: The Making of Modern Egypt , London , 1906.

5- Dicey , E: The Egypt of the Future , London , 1907.

6- Landau , J. : Parliaments and Parties in Egypt , New York , 1954.

7- Malet , E: Egypt 1879- 1883, London , 1909.

8- Newman : Great Britain in Egypt , London , 1928.

9- Ninet, John : Arabi Pacha- Egypt , 1880- 1883, Paris 1884.

سادسا : الدوريات :

- جرائد عبد الله النديم : التنكيت والتبكيت - الطائف - الأستاذ .
- اللواء : أكتوبر ١٩٠١ .
- المقطم : أكتوبر ١٩٠١ .
- الهلال : سبتمبر ١٨٩٦ .
- الوقائع المصرية: فبراير وسبتمبر وأكتوبر ١٨٨١ ، ويونيو ويوليو وسبتمبر ١٨٨٢ .

المحتوى

١٦- العوامل التى ساعدت النديم على الاختفاء.

١٧- الخديو عباس الثانى والعفو عن النديم.

١٨- استئناف النديم للجهاد.

١٩- مطالبة سلطات الاحتلال بنفى النديم وتخلى الخديو عنه.

٢٠- دروس الوطنية التى أخذها مصطفى كامل من النديم.

٢١- أوجه الخلاف بين مصطفى كامل وأستاذه النديم.

٢٢- النديم والإصلاح الاجتماعى.

٢٣- أساليب النديم فى العمل الوطنى (الخطابة- الصحافة - العمل المسرحى).

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة
حكاية مصر

١- حكاية ثورة ١٩١٩ .... عماد أبو غازى

2- حكايـة سيدة مصر القديمة .... د. منال القاضى

3- حكاية قناة السويس .... إيمان عامر

4- حكاية كوبرى عباس .... سيد محمود حسن

5- جلاّد دنشواى .... صلاح عيسى

قصة عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية والرجل الثانى بعد أحمد عرابى تمثل طبيعة الإنسان المصرى بكل سماته و صفاته، حيث انبعث النديم من غمار عامة الشعب، وعانى و ذاق ما يتعرض له من فقر و حرمان فالتأم شقاؤه بشقاء أمته، فكانت كلماته و قفشاته تعبيرًا حيًا عما يدور بخلد الشعب.

لقد كان النديم ميالاً بفطرته التى نشأ عليها قبل أن تولد الثورة العرابية إلى المناوشة سواء في عالم الفكاهة و العبث أو فى عالم الجد والعمل.

www.althaqafahalgadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com

الثمن : ثلاثة جنيهات